المحور السادس : نماذج من العباقرة

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]

١ ـ الصديق أبو بكر

إنه المتفرد فى عمله ، فلا يقدر أحد أن يصنع مثل صنيعه : أسلم على يده من العشرة المبشرين بالجنة خمسة وهم : عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وكفى بإسلام هؤلاء العباقرة نعمة .

اجتمع لأبى بكر إسلام أبويه وأولاده جميعا ، فأدرك أبوه أبو قحافة النبى ﷺ وكذلك أبناؤه ذكورا وإناثا ، ولم يكن للصحابة ذلك (١) وخصه الله بأربع خصال : سماه الصديق ، ولم يسم أحدًا بهذا اللقب غيرَهُ ، فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] وهو صاحب الغار مع رسول الله ﷺ ورفيقه فى الهجرة لقوله تعالى : ﴿ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] وأمره رسول الله ﷺ بالصلاة والمسلمون شهود فقال ﷺ : «مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

وكان ﷺ من النبى ﷺ مكان الوزير ، فكان يشاوره فى جميع أموره عملا بقوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وكان ثانيه فى الإسلام، وثانيه فى الغار ، وثانيه فى العريش يوم بدر ، وثانيه فى القبر بل جعل رأسه عند كتفى رسول الله ﷺ ولم يكن رسول الله ﷺ يقدم عليه أحدا .

أنزل الله تعالى فيه الآيات التالية: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ [الأحقاف : ١٥] .

﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ

(١) نور الأبصار ص ٦٠ .

عَلَيْهِ ﴾ .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ ومنها قوله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [الليل] .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩]

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ قاله ابن عساكر .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم : ٤] وأولهم أبو بكر رضي الله عنه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] وفى مقدمتهم الصديق أبو بكر .

وإن كانت العبرة فى القرآن والحديث بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فإن السابق فى الفضل سابق فى الأجر والعبقرية والخيرات . قال الله تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ [الحديد : ١٠] ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة : ١٠ ـ ١١] وأما الأحاديث النبوية المُشيدة بعبقريته وسبقه فالأحاديث التالية : «إن مِنْ أمَن الناس عَلَيَّ فى صحبته وماله أبا بكر ، ولو كنت متخذا خليلا غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن أخوة الإسلام » .

« أبو بكر وعمر بمنزلة السمع والبصر » (١) ، « ما عرضت الإسلام على أحد إلا كانت له كبوة عدا أبا بكر فإنه لم يتلعثم » .

وأخرج الشيخان عن جبير بن مطعم قال : أتت امرأة إلى النبى ﷺ فأمرها أن ترجع إليه ، قالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك ، كأنها تقول : الموت قال ﷺ :«إن لم تجدينى فائتى أبا بكر » .

وعن أبى الدرداء قال : رآنى النبى ﷺ أمشى أمام أبى بكر فقال :«يا أبا

(١) رواه الترمذى .

الدرداء أتمشى أمام من هـو خير منك فى الدنيـا والآخرة ، وما طـلعت شمس ولا غربت بعد النبيين والمرسلين على رجل أفضل من أبى بكر » .

وعن على بن أبى طالب ﷺ أنه قال : « ما مات رسـول الله ﷺ حتى عرفنا أن أفضلنا بعد رسول الله ﷺ أبو بكر » .

لقد كان من فرط حبه لرسول الله ﷺ أنـه لما خرج مع رسول الله ﷺ متوجها إلى الغار جـعل طورا يمشى أمامه ، وطورا يمشى خلـفه ، وطورا عن يمينه ، وطورا عن شماله ، فقال عليه الصـلاة والسلام : « ما هذا يا أبا بكر ؟ » فقال : يا رسول الله أذكر الرصد فأحب أن أكون أمامك ، وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك، وأحفظك عن يمينك وشمالك » فـقال الرسول ﷺ : « لا بأس عليك يا أبا بكر الله معنا » (١) .

وهو أول الخلفاء الراشدين ، وأول خليـفة ولى الخلافة وأبوه على قيـد الحياة ، وأول خليفة فرضت له رعيته العطاء ، لما ولى قال بعض المسلمين : « افرضوا لخليفة رسول الله ﷺ ما يغنيـه » . فقال بعضهم : « رداءاه إذا أخلقـهما وضعهـما وأخذ غيـرهما ونفقـته على أهله كمـا كان ينفق قبل ذلك ، وظهـره إذا سافر ، فـقال : «رضيت ، رضيت » فهو أول خليفة فرضت له رعيته العطاء (٢) .

ولما اشتد به الوجع أرسل إلى عثمـان وعلى ورجال من المهاجرين والأنصار ، فـقال : « قـد حضـر مـا ترون ، ولابد من قائم بأمـركم ، فـإن شئـتم اختـرتم لأنفسكم، وإن شئتم اخترت لكم » قالوا : بل اختر لنا . قال لعثمان : اكتب، هذا ما عـهد أبوبكر بن أبى قـحافة فى آخـر عهـده بالدنيا خارجـا منها ، وأول عـهده بالآخرة داخلا فيها حيث يتـوب الفاجر ، ويؤمن الكافر ، ويصدق الكاذب ، عَهِدَ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبـده ورسوله . . . قد استخلفت عمر بن الخطاب بعدى ورضـيته لكم ، فـإن عدل فذلك ظنى به ورأيى فـيه وإن بدل فلكل نفس ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، والخيرَ أردت ولا أعلم الغيب ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ

(١) نور الأبصار ص ٦٢ .

(٢) الأوائل : أبو هلال العسكرى ١/ ٢١١، والسيوطى فى كتابه الوسائل إلى معرفة الأوائل ص١٠١ .

﴿ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ فالتوى عمر وقال : « لا أطيق القيام بأمر الناس». فقال أبو بكر: «هاتوا سيفى». وتهدده فانقاد عمر فهو أول خليفة استخلف من الخلفاء [١]. كان ﷺ أشجع الصحابة وأثبتهم فى دين الله . ففى معالم التنزيل ما نصه : «لما قبض رسول الله ﷺ وانتشر خبر وفاته ارتد العرب إلا أهل مكة والمدينة والبحرين ، ومنع بعضهم الزكاة ، فَهَمَّ أبو بكر بقتالهم فكره أصحاب رسول الله ﷺ ذلك ، وقال عمر : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإن قالوها عصمونى دماءهم وأموالهم» وقال أبو بكر : «أليس قد قال: «إلا بحقها ؟» ومن حقها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والله لو منعونى عقالا ـ وفى رواية عناقا ـ كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه ، ولو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى » . فقال عمر بن الخطاب : « فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق ، والله لقد رجح إيمان أبى بكر بإيمان هذه الأمة جميعا فى قتال أهل الردة » [٢] .

إنه المتفرد فى عمله ، السابق إلى الخيرات فلا يقدر أحد أن يصنع مثل صنعه إنه أول من دعا إلى جمع القرآن الكريم فى مصحف . بعد أن استخار ربه وشاور صحبه ثم دعا زيد بن ثابت وقال : « إنك شاب عاقل لا نتهمك » وأمره أن يبدأ بجمع القرآن الكريم ليحقق وعد الله القائل : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] . ونهض زيد بالعمل مستعينا بذوى الخبرة ، فمضى يجمع الآيات والسور من صدور الحفاظ ومن مواطنها المكتوبة متحديا جميع المصاعب التى شكلتها قداسة المهمة وجلالها عارفا بضخامة المسؤولية قائلا : « والله لو كلفونى نقل جبل من مكانه لكان أهون على مما أمرونى به من جمع القرآن » .

وفى مدة خلافته اليسيرة فَتَحَ فتوحات كثيرة فأول ما بدأ به بعد خلافته أنه أنفذ جيش أسامة ، وكان قد استصغر قوم من الصحابة أسامة وقالوا لعمر بن الخطاب ﷺ : قل لأبى بكر يرجع بالمسلمين . فإن أبى أن لا يفعل فليول علينا

---

(١) الأوائل ١/ ٢١٩ ، الوسائل إلى معرفة الأوائل ص ١٠١ .

(٢) نور الأبصار ص٦٣ .

رجلا أقدم سنا من أسامة ، فجاء عمر إلى أبى بكر ، وذكر له ذلك فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه : « لو خطفتنى الكلاب والذئاب لم أرد قضاءً قضى به رسول الله ﷺ » فرجع عمر إلى الأنصار وذكر لهم مقالة أبى بكر ﷺ فقالوا : «لابد وأن تراجع أبا بكر فى ذلك» ، فراجع عمر ، فقال أبو بكر وأخذ بلحية عمر وقال : «ثكلتك أمك يابن الخطاب استعمل رسول الله ﷺ أسامة وأمره وتأمرنى أن أنزعه» فعند ذلك رجع عمر رضى الله تعالى عنه إلى الناس ، وأخبرهم فتجهزوا وخرجوا وخرج أبو بكر فشيعهم وهو ماش وأسامة راكب ، وعبد الرحمن بن عوف يقود دابة أبى بكر . فقال أسامة لأبى بكر : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن . فقال أبو بكر : « والله لا أركب ولا تنزل ، وما ضرنى أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله » . وعاد أبو بكر وسافر أسامة بالجيش إلى الروم ، فلما وصل أسامة إلى بنى كحبلى شن عليهم الغارة ، وسبى حريمهم وحرق منازلهم ، وأصاب الغنائم وكان أسامة على فرس أبيه وقتل قاتل أبيه لأن أباه كان قد استشهد فى سرية مؤتة وكانت كذلك بالروم (١) .

وفى عهد أبى بكر قتل مُسَيْلَمة الكذَّاب وقاتل جموع أهل الردة إلى أن رجعوا إلى دين الله ، وفتح أطراف العراق وبعض الشام .

ولما حضرته الوفاة أرسل إلى عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال : «إنى أوصيك بوصية إن أنت قبلتها عنى : إن لله عز وجل حقا بالليل لا يقبله بالنهار ، وإن لله حقا بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه عز وجل لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة، واعلم أن الله عز وجل ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم ، فيقول القائل : أين يقع عملى فى عمل هؤلاء ، وذلك أن الله عز وجل تجاوز عن سيئ أعمالهم ولم يثربه (٢) . واعلم أن الله عز وجل ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ، ويقول قائل: أنا خير من هؤلاء عملا وذلك ، أن الله عز وجل رد عليهم أحسن أعمالهم فلم يقبله . ألم تر إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه فى الآخرة باتباعهم الحق فى

---

(١) نور الأبصار ص ٦٣ .

(٢) لم يثربه : لم يؤاخذهم به قال الله تعالى : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم﴾ [يوسف: ٩٢] .

الدنيا وثقل عليهم ذلك ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا حق أن يثقل . ألم تر أنما خفت موازين من خفت موازينه فى الآخرة باتباعهم الباطل فى الدنيا وخف ذلك عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا باطل أن يخف . ألم تر أن الله عز وجل أنزل آية الرخاء عند آية الشدة ، وآية الشدة عند آية الرخاء لكى يكون العبد راغبا راهبا ، لا يلقى بيده إلى التهلكة ، ولا يتمنى على الله غير الحق ، فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكونن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه » (١) وكان آخر ما تكلم به أبو بكر : « ربى توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » (٢) .

ولما توفى أبو بكر رضي الله عنه ارتجت المدينة بالبكاء ودهش القوم كيوم موت رسول الله ﷺ . وقال على بن أبى طالب فى تأبينه : « . . . كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف : كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفا فى بدنك قويا فى أمر الله، متواضعا فى نفسك عظيما عند الله ، جليلا فى الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك . . . » (٣) .

رضى الله عنك يا خليفة رسول الله ﷺ وألحقنا بك صالحين .

دخل هارون الرشيد مسجد رسول الله ﷺ فبعث إلى مالك بن أنس فقيه المدينة ، فأتاه وهو واقف بين قبر رسول الله ﷺ فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافة قال : « يا مالك، صف لى مكان أبى بكر وعمر من رسول الله ﷺ فى الحياة الدنيا فقال مالك : « مكانهما منه يا أمير المؤمنين كمكان قَبْرَيْهِمَا من قبره «فقال: شفيتنى يا مَالِكُ » (٤) رضى الله عنهم أجمعين .

(١ ، ٢) نور الأبصار ص٦٤ .

(٣) عبقرية الصديق ص١٥٠ .

(٤) العقد الفريد ٥/ ١٣ .

الفاروق عمر بن الخطاب

يقول رسول الله ﷺ : « إنه كان فى الأمم قبلكم مُحَدثونَ ، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب » . يقول ابن قيم الجوزية : « مرتبة التحديث دون مرتبة الوحى الخاص وتكون دون مرتبة الصديقين . . . والمحدث هو الذى يُحدث فى سره وقلبه بالشىء ، فيكون ، كما يُحَدثُ به »(١) . والتحديث أعلى مراتب الفراسة الصادقة الناتجة عن فرط الحس ، وتوفز الشعور ، فيميز صاحبها بهما بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينها ، ويأخذ المعانى من أسمائها ، ويدرك الأمر قبل وقوعه وذلك لصفاء قلبه وطهارته وتنزهه من الأنجاس ، وقربه من الله عز وجل ، فهو ينظر بنور الله الذى جعله فى قلبه .

وفى الحديث قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»(٢). وقال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر : ٧٥] . قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أى المتفرسين، وقال سبحانه: ﴿ **تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وقال جل وعلا : ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ [محمد : ٣٠] . وهذه الفراسة نشأت لعمر من قربه من الله ، فإن القلب إذا قرب من الله انقطعت عنه معارضات السوء المانعة من معرفة الحق وإدراكه وكان تلقيه من مشكاة قريبة من الله بحسب قربه منه ، وأضاء له النور بقدر قربه ، فرأى فى ذلك النور ما لم يره البعيد والمحجوب كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : «ما تقرب إلى عبدى بمثل ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر ، وبى يبطش وبى يمشى». فإذا حصل له هذا النور صار قلبه كالمرآة الصافية تبدو فيها صور الحقائق على ما هى عليه ، فلا

---

(١) مدارج السالكين .

(٢) رواه الترمذى وغيره من حديث أبى سعيد .

تكاد تخطئ له فراسة ، فإن العبد إذا أبصر بالله أبصر الأمر على ما هو عليه . وليس هذا من علم الغيب ، بل علام الغيوب قذف الحق فى قلب قريب مستبشر بنوره ، غير مشغول بنقوش الأباطيل والخيالات والوساوس التى تمنعه من حصول صور الحقائق فيه ، وإذا غلب على القلب النور فاض على الأركان، وبادر من القلب إلى العين ، فكشف بعين بصره بحسب ذلك النور . وقد كان رسول الله ﷺ يرى أصحابه فى الصلاة وهم خلفه كما يراهم أمامه (١) . ورأى بيت المقدس عيانا وهو بمكة ، ورأى قصور الشام ، وأبواب صنعاء ، ومدائن كسرى وهو بالمدينة يحفر الخندق ، ورأى أمراءه بمؤتة وقد أصيبوا وهو بالمدينة ، ورأى النجاشى بالحبشة لما مات وهو بالمدينة وخرج إلى المصلى فصلى عليه.

فلا عجب إذا أوتى عمر بن الخطاب قدرة تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس ، فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق ما يكمن وراءها .

ولا عجب إذا أوتى قدرة لاستنباط الأسرار ، وكشف الخفايا ، واستيضاح البواطن ، واستخراج المعانى التى تدق على الألباب ، فيعرف من هو :

الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

وهذه نماذج من تحديثه وفراسته رضى الله تعالى عنه :

١ ـ جبريل ينطق بالقرآن على لسان عمر :

* مات عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين فى المدينة ، فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله ﷺ وقال : « يا رسول الله تصلى عليه وقد نهاك الله أن تصلى عليهم ؟ » فقال : « إنما خيرنى ربى فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] » قال عمر : « إنه منافق » فصلى عليه رسول الله ﷺ . . ولكن الله سبحانه بين الأمر لرسول الله ﷺ فقال : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] .

(١) الروح ، باب الفراسة .

* وآذت الخمر كثيرا من المسلمين فى بعض المواقف بشكل لا يرضى ولا يليق وبعد أن حرف بعض المسلمين تلاوة آية من القرآن تحت تأثير الخمر ، فشق على المسلمين الأمر ،ونزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[النساء: ٣٤]،وهنا قدر عمر بن الخطاب ﷺ بسليم فطرته الملهمة أن الله سبحانه سيحرم الخمر تحريما باتا قاطعا ،فرُوى عنه أنه قال: « إن الله عز وجل تقارب فى النهى عن شرب الخمر ،وما أراه إلا سيحرمها وجأرَ إلى الله سبحانه: « اللهم بيّن لنا فى الخمر بيانا شافيا » فكان ما أراد ،وأكرمه الله بآية التحريم الباتة القاطعة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠، ٩١] وهو استفهام استنكارى أقوى وأقطع فى التحريم من النهى العادى، ففى ألفاظ الآية وتركيبها وصياغتها تهديد رهيب واضح كالشمس فى التحريم . ويعلو صوت عمر بن الخطاب مهللا وقد جاء البيان الشافى بتحريم الخمر: انتهينا يا رب (١).

* وتغاضب أمهات المؤمنين رسول الله ﷺ ،فيدخل عمر بن الخطاب ﷺ عليهن ثائرا ومهددا ومؤنبا يقول: « لتنتهُن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن» وفى رواية: «أتت بعض نسائه فقالت: يا عمر أما فى رسول الله ما يعظ نسائه حتى تعظهن أنت فأنزل الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾(١)[التحريم: ٥].

* وتدور الدائرة على المشركين فى بدر الكبرى،ويستحرُّ فيهم القتل ،ويكثر منهم الأسرى تُقاد إلى المدينة فى الحبال ،ويستشير رسول الله ﷺ الصحابة فى شأن الأسرى ،فيرى أبو بكر وفريق من الصحابة ﷺ أخذ الفداء،ويلتفت رسول الله ﷺ ويقول: ما ترى يا بن الخطاب .وينبرى المُلهم صاحب الرأى الحديد السديد ويقول: والله ما أرى ما رأى أبو بكر ،ولكن أرى أن تملكنى من فلان ـ أحد أقاربه ـ فأضرب عنقه حتى يعلم أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين .ويعلل

(١) الجامع لأحكام القرآن ٦/ ١٨٥ .

عمر رضي الله عنه رأيه الحاسم الباتر بما آتاه الله من فهم فيقول : هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. إلا أن رسول الله ﷺ مال لرأى أبى بكر وأخذ منهم الفداء . يقول عمر رضي الله عنه : فلما كان من الغد غدوتُ على رسول الله ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان فقلت : يا رسول الله ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما . فقال رسول الله ﷺ :« للذى عرض لأصحابى من أخذ الفداء،وقد عُرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة » لشجرة قريبة ،وفى رواية قال رسول الله ﷺ :« لو عذبنا الله جميعا لم ينج منا إلا أنت يا عمر » فقد نزلت آية كريمة تصوِّبُ رأى عمر وتعتب على أخذ الفداء وهى قوله تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[الأنفال: ٦٧ ، ٦٨].

ولئن كان هذا رأى عمر رضي الله عنه فقد كان معنى لآيات لم تكن قد نزلت بعد، إذ جاء الوحى بعد بدر يقول: ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤].

* كانت الآية الكريمة تنزل ،وتتلى على المسلمين،فينصتون،ويعتبرون ، وينفذون ،ولكن تذوق عمر رضي الله عنه القرآن مكّنهُ من إدراك ما سيتلى قبل أن يتلى. تنزل الآية الكريمة : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ [المؤمنون:١٢ ـ ١٤] . واسترعت تطورات الخلق ودقة التكوين، وحلاوة النظم انتباه عمر اليقظ ،فهتف من أعماق قلبه الذاكر قبل أن تكمل الآية الكريمة قائلا: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٤]وتكمل الآية الكريمة على هذ النسق الجميل ﴿**فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون:١٤] .

* ليس حال عمر رضي الله عنه مع القرآن قاصرا على الموافقات،ولكن ما تمنى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أمنية فيها خير للمسلمين إلا وحقق الله لعمر ما تمنى بقرآن يتلى

فيطاع . يقول ابن عباس ﷺ: بعث رسول الله ﷺ غلاما من الأنصار اسمه مدلج إلى عمر بن الخطاب يدعوه ، فانطلق الغلام فوجده نائما على ظهره، وقد رد الباب فدفع الغلام الباب على عمر بن الخطاب ﷺ فسلم ، فلم يستيقظ ، فرجع الغلام ، فلما علم عمر ﷺ أن الغلام قد رأى منه ، أى رآه فى لباس خفيف، قال: وددت أن الله نهى أبناءنا وخدمنا أن يدخلوا علينا فى هذه الساعة إلا بإذن».

وانطلق عمر إلى النبى ﷺ فوجده وقد نزلت عليه هذه الآية الكريمة : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور :٥٨] .

* وشاع بين المسلمين أن النبى ﷺ طلق أزواجه ، فأسرع عمر إلى النبى ﷺ يسأله فنفى، فوقف عمر على باب المسجد فنادى بأعلى صوته: «لم يطلق رسول الله نساءه ».

ونزلت الآية الكريمة تطرى تصرف عمر: ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم ﴾ [النساء: ٨٣]

ويعقب عمر ﷺ على الآية الكريمة فرحا فيقول: « وكنت استنبطت ذلك الأمر» .

٢ـ عمر ينظر إلى الغيب بستر رقيق :

* لقد رأى عمر بن الخطاب ﷺ سارية بنهاوند من أرض فارس ، وعمر بالمدينة المنورة ، رآه هو وعساكره المسلمين وهم يقاتلون عدوهم فناداه: «يا سارية الجبل » فسمعه سارية وآوى ومن معه إلى الجبل ، فقاتلوا الفرس وانتصروا بإذن الله تعالى ، وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا صوتا يشبه صوت عمر ﷺ.

* ودخل عليهم نفر من مذحج فيهم الأشتر النخعى ، فصعد عمر ﷺ فيه

البصر وصوبه ،وقال « أيهم هذا ؟ » قالوا :مالك بن الحارث ،فقال: ماله قاتله الله إنى لأرى للمسلمين منه يوما عصيبا » ،ولقد كانت للرجل مواقف سوء وفتنة أيام على ومعاوية.

* ولما زار عمر الشام ورأى معاوية بن أبى سفيان يتشبه بالملوك فى لباسه وسيرته ،قال : هذا صناجة العرب (١).

* وسأل عمر رضي الله عنه رجلا عن اسمه فقال : جمرة قال : واسم أبيك ؟ قال: شهاب،قال: ممن ؟ قال:من الحرقة ، قال: فمنزلك ؟ قال : بحرة النار ،قال: فأين مسكنك؟ قال: بذات لظى ، قال عمر : اذهب فقد احترق مسكنك فذهب الرجل فوجد الأمر كذلك (٢) .

* وجاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله ما اسمك؟ ،قال: قريب ،وسأله مرة أخرى:ابن من ؟فقال: ابن ظفر،فتفاءل وقال : ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله .

* ومر عمر رضي الله عنه بعجوز تبيع لبنا معها فى سوق الليل ،فقال لها : يا عجوز لا تغشى المسلمين وزوار بيت الله ،ولا تشوبى اللبن بالماء، فقالت:نعم يا أمير المؤمنين ،ثم مر بعد ذلك فقال لها:يا عجوز ألم أتقدم إليك أن لا تشوبى لبنك بالماء ؟ فقالت: والله ما فعلت ، فتكلمت ابنة لها من داخل الخباء فقالت: يا أماه أغشا وكذبا جمعت على نفسك ؟ فسمعها عمر فهمَّ بمعاقبة العجوز ، فتركها لكلام ابنتها ، ثم التفت إلى بنيه ،فقال: « أيكم يتزوج هذه فلعل الله عز وجل أن يخرج منها نسمة طيبة مثلها » فقال عاصم بن عمر :« أنا أتزوجها يا أمير المؤمنين، فزوجها إياه،فولدت له أم عاصم (ليلى)،فتزوج أمّ عاصم عبدُ العزيز ابن مروان فولدت له: عمر بن عبد العزيز .

* لقد بايع صحابة رسول الله ﷺ فى بيعة الرضوان تحت الشجرة التى بارك الله فيها وأشاد بذكرها فى كتابه العزيز فقال: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ**

(١) صنج النحاس : جعله يطن . يقال:لا أعرف من أى صنج هو :أى أصناف الناس هو .
(٢) أخرجه مالك فى الموطأ ٢/ ٩٧٣ .

تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾[الفتح:٢٧] إنها شجرة جديرة بالاحترام لأنها تحمل فى طياتها ذكرى من أعز الذكريات .وكان بعض الصحابة إذا مروا عليها استظلوا بظلها وربما صلى بعضهم ركعتين شكرا لله تعالى على نعمة الإسلام .لكن عمر بن الخطاب ﷺ رأى ببُعد نظره ما لا يراه باقى الصحابة فخشى أن تعبد من دون الله فيما بعد ، فأمر بقطعها ومحو أثرها لعلمه بما فعل قوم موسى - عليه السلام - لما جاوزوا البحر إذ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨] .

لقد حل عمر بن الخطاب ﷺ بخشيته ربه محلا لم يصل إليه بعده أحد . والباب الذى ولجه عمر لا يزال مفتوحا ولن يغلق . فكل من خشى ربه وألزم نفسه موقف المراقبة ،لن يتخلى الله عنه أبدا ، حتى لو أخطأ هيأ الله له ما يصلح خطأه قبل أن يتمادى فيه ،ويشرح له صدره .وقد وعد الله ووعده الحق، وعد كل من آمن وعرف طريق الإيمان وأوغل فيه برفق بعز الدنيا ونعيم الآخرة، فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] .

عمر فى الميزان :

العاقل من يزن الرجال بميزان الشرع ، لا إرجاح ولا تطفيف ، ويزنهم بنفس الميزان لا زيادة ولا نقصان ،ميزان لا يزيغ عن الحق ،ولا يميل مع الهوى . وما من شك أن أفضل وأصدق من يقول رأيه فى عمر ﷺ هو رسول الله ﷺ . وهذه مجموعة من أقوال النبى ﷺ فى عمر ﷺ :

- «إن الله جعل الحق على لسانه وقلبه ،لم أر عبقريا يفرى فريه » .

- «إن رضا عمر رحمة » (١) .

- وبحبوه رسولُ الله ﷺ بفيض من العطف النبوى الكريم عندما يستأذنه عمر فى عمرة،فيأذن له ويقول: « يا أخى أشركنا فى صالح دعواتك ولا

(١) الإصابة: ٣/ ٣٢ .

تنسنا » (١).

ـ ومن تنبؤات رسول الله ﷺ : « إنكم ستحدثون من بعدى أشياء وأحبها إلى ما أحدثه عمر» (٢).

ـ ومن قوله ﷺ: « لو كان نبيا بعدى لكان عمر »(٣).

ـ وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « بينما أنا نائم رأيت الناس يعرضون عليهم قمص منها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك ،ومر عمر بن الخطاب وعليه قميص يجرّهُ»قالوا: ماذا أولت ذلك يا رسول الله؟قال: «الدين» (٤).

ـ وقال رسول الله ﷺ: « يا عمر ما لقيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجك » (٥).

ـ وقال رسول الله ﷺ: « قد كان فى الأمم محدثُون فإن يكن فى أمتى منهم فهو عمر وينزل رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر منزلة من نفسه لم ينلها أحد من المسلمين فيقول: « هذان السمع والبصر » (٦). ويقول عنهما أيضا: « الحمد لله الذى أيدنى بكما »(٧).

ـ وقد أبدى أبو بكر رأيه فى عمر قولا وفعلا وكتابة، فقد كره بعض الصحابة تأمير عمر عليهم فقالوا لأبى بكر : أتؤمّر علينا عنان وأنت حى؟ ماذا تقول لربك إذا قدمت عليه ؟ قال: أقول له إذا قدمت عليه : أمرت عليهم خير أهلك » (٨).

وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر كان إسلامه فتحا ، وكانت هجرته نصرا وإمارته رحمة، لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر » .

إن العبقرية لها فى عمر بن الخطاب رضي الله عنه منتجع معشوشب لا ينفَتح على

---

(١) رواه أحمد والسلفى .
(٢) أسد الغابة ٤/ ٢٠ .
(٣) الترمذى ، أسد الغابة ٤/ ١٦١ .
(٤) مسلم ٢٥٢ .
(٥) النسائى وأبو حاتم عن سعيد.
(٦) أسد الغابة ٣/ ٢١٨ .
(٧) أسد الغابة ٦/ ١٠ .
(٨) أسد الغابة ٤/ ١٧٦ .

كثرة الرّعْى فمن أحب أن يكون عبقريا على بصيرة فليستعرض حياة هذا الولى المُلهم ، وليقتبس من هذا الخليفة الراشد ،وليكثر من ذكر سيرته ، فمن ذكر عمر فقد ذكر العدل ،ومن ذكر العدل فقد ذكر الله تعالى .

لقد كان عمر رضي الله عنه متفردا فى عمله فلم يقدر أحد أن يصنع مثل صنيعه فهو أول من لقب بأمير المؤمنين ،وأول من عسّ بالمدينة المنورة ليلا وذلك أثناء خلافته، وطاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

وهو أول من حمل الدّرة (السوط) وضرب بها ليؤدب بها الناس ترغيبا وترهيبا (١) وقد قيل بعد ذلك :« لدرة عمر أهيب من سيف الحجّاج . وهو أول من سن قيام شهر رمضان ،وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة عندما جمع الناس على إمام واحد يصلى بهم التراويح ولعله أبى بن كعب رضي الله عنه وكتب بذلك إلى سائر البلدان ،وأمرهم العمل به (٢) وهو أول من أرخ بالتاريخ الهجرى فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة للهجرة ، وكان ذلك بمشورة على بن أبى طالب .

وهو أول من قدر رواتب العمال وحددها بعد تدوين الدواوين وذلك عندما وجه عمار بن ياسر إلى الكوفة وولاه صلاتها وجيوشها ،فجعل له ستمائة درهم فى الشهر ،وعين الرواتب لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن يقوم بالأمر معه (٣) .

وهو أول من أشار على أبى بكر بجمع القرآن فى المصحف الكريم، وأول من استقضى القضاة وكان نقش خاتمه: « كفى بالموت واعظًا يا عمر » (٤) ، وكان يختم بخاتم رسول الله ﷺ (٥) .

وهو أول من اتسعت الفتوحات الإسلامية على يده ، فقد تم فى عهده فتح بلاد العراق بأسرها ،وبلاد فارس والأهواز وأذربيجان ،وبلاد الشام ـ ما عدا أجنادين فإنها فتحت فى عهد أبى بكر ـ وكذلك مصر والإسكندرية ،وهو أول من مسح أرض السواد من بلاد العراق،فوضع الخراج على الأرض ،والجزية على أهل الذمة من اليهود والنصارى ، فوضع على الغنى منهم جزية مقدارها أربعين درهما ، وعلى الوسط أربعة وعشرين درهما ، وعلى الفقير اثنا عشر درهما وقال:« لا يعوز رجلا منهم درهم فى الشهر » (٦) .

---

(١) الطبقات .
(٢) الأوائل لأبى هلال ١/ ٢٢٥ .
(٣) معجم الأوائل ٢٢ .
(٤) المرجع السابق ص ٢٣ .
(٥) مسلم ٥ / ٢٥٢ .
(٦) معجم الأوائل ص ٢٣ .

من خطبه ﷺ :

لما دُفن أبو بكر ﷺ صعد عمر إلى المنبر فجلس دون مجلس أبى بكر ثم قام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله ﷺ ثم قال:

أيها الناس إنى داع فـأمنوا: « اللهم إنى غليظ فألنّى إلى أهل طاعتك بموافـقة الحق ابتغاء وجـهك والدار الآخرة ،وارزقنى الغلظة والشدة على أعـدائك من غير ظلم منى ولا اعتداء عليـهم،اللهم إنى شحيح فسـخِّنى فى نوائب المؤن قصدا من غـير سـرف ولا تبذير ولا ريـاء ولا سُمـعة أبتـغى بذلك وجـهك الكريم والدار الآخرة، وارزقنى خفض الجناح ولين الجانب للمؤمنين فإنى كثير الغفلة والنسيان ، وألهـمنى ذكرك على كـل حال» .ثم قـال : « ألا ورب الكعبـة لأحـملنهم على الطريق » «ثم نزل ﷺ (١) .

وكتب ﷺ إلى أبى موسى الأشعرى موضحا له منهج القضاء الذى ينبغى أن ينهجه فقال:

من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . . .سلام عليك .

أما بعـد :فإن القضاء فـريضة محكمة ،وسنة مـتبعة ، فـافهم إذا أدلى إليك وأنفذ إذا تبين لك فإنه لا ينفع حق لا نفاذ له .

آس بين الناس فى مـجلسك ووجهك ،حـتى لا يطمع شريف فى حـيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البينة على من ادّعى ،واليـمينُ على من أنكر . . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا .ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت لرشـدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم لا يبطله شىء ، ومراجعة الحق خير لك من التمادى فى الباطل .

الفهم الفهم فيمـا يتلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا فى سُنّة واعرف

---

(١) نور الأبصار ٦٩ .

الأشباه والأمثال ،ثم قس الأمور على ذلك ،واعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى. .واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه ،فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ،وإلا استحللت عليه القضاء ،فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى ،وأبلغ فى العذر .

والمسلمون عدول فى الشهادة بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد ،أو مجربا عليه شهادة زور ،أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ،فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات.

وإياك والقلق والضجر ،والتأذى بالناس ،والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ،ويحسن الذخر ،فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، يكفه الله ما بينه وبين الناس . . . ومن تزين للناس فيما يعلم الله خلافه منه شانهُ الله وهتك ستره وأبدى فعله .فما ظنك بثواب عند الله فى عاجل رزقه،وخزائن رحمته؟ والسلام »(١).

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه :« بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثله، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب ،فلم يكن لها همّ إلا السمن،وإنما حتفها فى السمن . . .واعلم أن للعامل مرادا إلى الله ، فإذا زاغ زاغت رعيته، وإن أشقى الناس من شقيت به رعيته » (٢).

وكتب إلى سعد أيضا يحذره من الذنوب وأنها سبب الهزيمة فقال: « . .يا سعد فإنى أوصيك ومن معك بتقوى الله على كل حال ،وأوصيك ومن معك من الأجناد أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم،فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عُدتنا كعُدتهم ،فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم

(١) خلفاء الرسول : ص٢١٢ .

(٢) المرجع السابق: ص٢١٤ .

بقوتنا، واعلموا أن فى سيركم عليكم حفظة يعلمون ما تفعلون ،فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ،واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم. والسلام ».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :« حج عمر رضي الله عنه فلما كان بضجنان قال: « لا إله إلا الله العظيم المُعطى لمن شاء ، كنت أرعى إبل الخطاب بهذا الوادى فى مدرعة صوف ،وكان فظا يتعبنى إذا عملت ويضربنى إذا قصرت وقد أصبحت وأمسيت ليس بينى وبين الله أحد » . ثم تمثل بهذه الأبيات :

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تغن عن هُرْمُز يوما خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينها ترد

أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفِدُ

حوض هنالك مورود بلا كذب ... لا بد من وِرْدِه يوما كما وردوا(١)

إنها نهاية كل حى ،ولكل شىء نهاية ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص:٨٨]. ومهما قوى شعاع الشمس فلا بد أن يدركها المغيب ولا بد للضوء أن يختفى وهذا مصير كل حى .

لقد أحس عمر رضي الله عنه بدُنوّ أجله ،وكأن قد رأى فى منامه كأن ديكا نقره فأوّل ذلك بقرب الرحيل ،وكان التأويل فى محله، وإذا بالفاروق يتوجه إلى الله ضارعا:« اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط ، اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك ،واجعل موتى فى بلد رسولك» . فحقق الله رجاءه وأعطاه سؤله وأكرمه بجوار قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وما أكرمه من جار ، وما أعظمها من دار .

روت السيدة عائشة رضي الله عنها أنها طبخت للنبى صلى الله عليه وسلم حريرة ودعت سودة تأكل

(١) نور الأبصار ص٨٤ .

منها فأبت . . . فعزمت عليها لتأكلن أو لتلطخن وجهها. فلم تأكل ،فوضعت يدها فى الحريرة ولطختها بها .وضحك النبى عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: «لطخى أنت وجهها» ففعلت . . .ومر عمر فناداه النبى ﷺ:«يا عبد الله » . . .وقد ظن أنه سيدخل ،فقال لهما :« قوما فاغسلا وجهيكما» .

قالت السيدة عائشة :« فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله ﷺ إياه» .ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ فى زيارة قبره بعد موته وحكت ذلك فقالت: ما زلت أضع خمارى وأتفضّل فى ثيابى أقول :« إنما زوجى وأبى حتى دُفن عمر بن الخطاب،فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارا فتفضلت بعد»(١). فرضى الله عنك يا عمر بن الخطاب :

يا رافعا راية الشورى وحارسها ... جزاك ربك خيرا عن محبيها

رأى الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

إن جاع فى شدة قوم شاركتهم ... فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته ... فى الزهد منزلة سبحان موليها

فمن يبارى أبا حفص وسيرته؟ ... أو من يحاول للفاروق تشبيها؟

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فأشريها

ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به ... أولى فقومى لبيت المال رُدّيها

كذلك أخلاقه كانت وما عهدت ... بعد النبوة أخلاق تحاكيها

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها ... بفضل ربك حِصنا من أعاديها

يا من رأى عمرا تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه

يهتز كسرى على كرسيه فرقًا ... من بأسه وملوك الروم تخشاه

(١) عبقرية عمر ص١٩ .

* **سبب استشهاده** رضي الله عنه :

كان للمغيرة بن شعبة غلام نصرانى يقال له : فيروز أبو لؤلؤة، وكان نجارا لطيفا ،وكان خراجه ثقيلا . فشكا إلى عمر ثقل الخراج، وسأله أن يكلم مولاه أن يخفف عنه من خراجه ،فقال له: وكم خراجك ؟ قال: ثلاثة دراهم فى كل شهر، قال: « وما صناعتك ؟ قال: نجار قال: ما أرى هذا ثقيلا فى مثل صناعتك فخرج مغضبا فاستل خنجرا محدود الطرفين ، وكان عمر قد رأى فى المنام ديكا أحمر ينقره ثلاث نقرات ،فتأوله رجلا من العجم يطعنه ثلاث طعنات ، فطعنه أبو لؤلؤة بخنجره ذلك فى صلاة الصبح ثلاث طعنات إحداها بين صرته ،وعانته، فخرجت الصفاق وهى التى قتلته ،وطعن فى المسجد معه ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ،فأقبل رجل من بنى تميم يقال له حطان ،فألقى كساء عليه ثم احتضنه، فلما علم العلج أنه مأخوذ طعن نفسه ،وقدم عمر صهيبا يصلى بالناس فقرأ بهم فى صلاة الصبح ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]فى الركعة الأولى ،و ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾[الكافرون:١]فى الركعة الثانية ، واحتمل عمر إلى بيته فعاش ثلاثة أيام ثم مات . وكان قد استأذن عائشة أن يدفن فى بيتها مع صاحبيه وقالت : والله لقد كنت أردت ذلك المضجع لنفسى ولأُوثرنّه به اليوم على نفسى .

فكانت ولاية عمر عشر سنين ، صلى عليه صهيب بين القبر والمنبر ودفن عند غروب الشمس [١].

(١) العقد الفريد ٥/ ٢٣ .

ذو النورين عثمان بن عفان

إنه عبقرى نادر بما تشهد به أعماله وأخلاقه وآراؤه ،ونمط لا يتكرر ،وحيد فى التاريخ كله وفى الأمة الإسلامية جمعاء ،لا نظير له فى أخلاقه وصفاته متسع الجوانب، متعدد النواحى ،نوره عم الأقطار فى مشرقها ومغربها ،وتسامحه وجوده شمل القريب والبعيد ،ويتجلى ذلك فى قوله :« إن عمر بن الخطاب كان يقاطع أقاربه فى الله ،وأنا أصلُهم فى الله » .فليس أدل على رقى الخليفة وجدارته بالخلافة والحياة، واستحقاقه لقيادة العالم من سُمُو النزعة الإنسانية بل الإسلامية فى أبناء رعيته، سُمُوّا يفيض بالخير والرحمة على طبقات المجتمع كافة ، بل على كل من يعيش على الأرض من إنسان وحيوان .

إنه المتفرد فى عمله وخلقه وعبادته ، فلا يقدر أحد أن يصنع مثل صنيعه : أما تفرده فى عبادته فيشهد له عبد الله بن عمر رضي الله عنه عندما يتلو قول الله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾[الزمر:٩] ثم يقول: إنه عثمان بن عفان.

وهى شهادة حق تتألق فى ضوء العبادة الصافية المثابرة التى ازدانت بها حياة عثمان منذ عرف الله إلى أن لقيه شهيدا مجيدا .

لقد كان رضي الله عنه يحمل إشفاقا من الآخرة عظيما ،يتجلى فى خطبه التى كان يخطب المسلمين بها:

« أيها الناس اتقوا الله فإن تقوى الله غُنْمٌ ، وإن أكيس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،واكتسب من نور الله نورا لقبره . .وليخش عبد أن يحشره الله أعمى وقد كان بصيرا ».

إن الله أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ولم يعطكموها لتركنوا إليها. . . إن الدنيا تفنى ،وإن الآخرة تبقى ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى ،إن الدنيا منقطعة. . والمصير إلى الله وحده .

ولو أنى بين الجنة والنار لا أدرى إلى أيتهما يؤمر بى لتمنيت أن أصير رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير ».

وأما تفرده فى خلقه فيشهد له بذلك رسول الله ﷺ حين قال: « أصدق أمتى

حياء عثمان» .

وصادف أن أبا بكر ﷺ استأذن يوما على رسول الله ﷺ وكان الرسول ﷺ مضطجعا وقد انحسر جلبابه عن إحدى ساقيه فأذن لأبى بكر وأجرى معه حديثا ثم انصرف ،وبعد قليل جاء عمر فاستأذن فأذن له ومكث مع الرسول ﷺ بعض الوقت ثم انصرف ،ثم جاء عثمان فاستأذن ،وإذا الرسول ﷺ يتهيأ لمقدمه،فجلس بعد أن كان مُضطجعا ،ويسبل جلبابه فوق ساقه المكشوفة ، ويقضى عثمان معه بعض الوقت ثم ينصرف . . .وبعيد انصرافه تسأل عائشة الرسول ﷺ قائلة :« يا رسول الله لم أراك لا تتهيأ لأبى بكر ولا لعمر كما تهيأت لعثمان؟فيجيبنا قائلا:«إن عثمان رجل حيى ،ولو أذنت له وأنا مضطجع لاستحيا أن يدخل ، ولرجع دون أن أقضى له الحاجة التى جاء من أجلها ،يا عائشة ألا استحيى من رجل تستحيى منه الملائكة؟» .

ودائما كان رسول الله ﷺ يشيد بهذا الحياء الرفيع كأنما خلق الحياء لعثمان وحده .

يقول ﷺ: « أرحم أمتى أبو بكر . . . وأشدها فى دين الله عمر . . . وأشدها حياء عثمان » . .

وأخرج ابن عدى عن عائشة ﷺ قالت :« لما زوج النبى ﷺ بنته أم كلثوم لعثمان ﷺ قال لها :« إن بعلك أشبه الناس بجدك إبراهيم وأبيك محمد » (١)، ولقد زوجه ﷺ ابنته رقية من قبل ، فلما ماتت زوجه أم كلثوم قال ﷺ: « لو كانت لنا ثالثة لزوجناك » (٢) وفى رواية أخرى :«لو أن لى أربعين بنتا لزوجت عثمان واحدة بعد واحدة حتى لا تبقى منهن واحدة » (٣) .من أجل ذلك لقب عثمان بذى النورين .

« كان ﷺ يخطب الناس وعليه إزار عدنى غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة،وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويدخل بيته يأكل الخل والزيت ،وكان

---

(١) نور الأبصار :ص٧٩ .

(٢، ٣) أسد الغابة نقلا عن نور الأبصار ص٨٠ .

يردف غلامه خلفه فى أيام خلافته ولا يستعيب ذلك،وكان إذا مر على المقبرة بكى حتى تبتل لحيته » (١) .

ودعا له رسول الله ﷺ بالخصوصية غير مرة .وإنى أراها متجلية فى أعماله فضلا عن عبادته وأخلاقه.

فى العام التاسع الهجرى ولى « هرقل » الإمبراطور الرومانى وجهه صوب الجزيرة العربية يريد إطفاء نور الله فيها . . . وترامت الأنباء إلى رسول الله ﷺ فنادى فى أصحابه بالتهيؤ للجهاد ،وكان الصيف حارا ،والبلاد مجدبة ،وحض رسول الله ﷺ أصحابه على التبرع ،فأعطى كلٌ قدْر وُسعه . . .حتى النساء سارعن بالحلى يُقدمنه إلى رسول الله ﷺ ليستعين به فى إعداد الحملة.

ونظر رسول الله ﷺ إلى الصفوف الطويلة من الذين تهيؤوا للقتال وقال:«ومن يجهز هؤلاء ،ويغفر الله له ؟ » .

وما كاد عثمان يسمع النداء حتى سارع إلى المغفرة وجهز الجيش كله حتى لم يتركه بحاجة إلى طعام أو ركاب . . . جهزه بتسعمائة وأربعين بعيرا وستين فرسا أتم بها الألف .

يقول حذيفة بن اليمان:« جاء عثمان إلى رسول الله ﷺ فى جيش العسرة بعشرة آلاف دينار صبها بين يديه ،فجعل الرسول ﷺ يقلبها بيده ويقول:«غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت ،وما هو كائن منك إلى يوم القيامة ».

«وما ضر عثمان ما صنعُ بعد اليوم،اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض».

كان رضي الله عنه رفيق رسول الله ﷺ فى حله وترْحاله كما هو الآن رفيقه فى الجنة لقول النبى ﷺ :« رفيقى فى الجنة عثمان » .فلم يتخلف عن مشهد من المشاهد التاريخية عن رسول الله .وفى حال غيابه كان رسول الله ﷺ ينوب عنه ويفرض له حقه من الغنيمة مثل المجاهدين،ويبايع نيابة عنه ساعة البيعة :

(١) طبقات الشعرانى نقلا عن نور الأبصار ص٨٠ .

تحاجَّ عثمان وأبو عبيدة عامر بن الجراح ، فقال أبو عبيدة : يا عثمان تخرج على في الكلام وأنا أفضل منك بثلاث ؟ فقال عثمان وما هن؟ قال:

ـ الأولى أنى كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب .

ـ والثانية شهدت بدرا ولم تشهده .

ـ والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت .

فقال عثمان :« صدقت ».

ـ أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ بعثنى فى حاجة ومد يده عنى وقال : «هذه يد بيد عثمان بن عفان » وكانت يده الشريفة خيرا من يدى .

ـ وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفنى على المدنية ولم يُمكنّى مخالفته، وكانت ابنته رقية مريضة فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها .

ـ وأما انهزامى يوم أحُد فإن الله عفى عنى وأضاف فعلى إلى الشيطان فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران :١٥٥] .

فخصمهُ عثمان وغلبه (١).

وأصاب الناس قحط فى خلافة أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، فلما اشتد بهم الأمر جاؤوا إلى أبى بكر وقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت وقد توقع الناس الهلاك فما نصنع ؟

قال لهم :« انصرفوا واصبروا فإنى أرجو الله ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم» فلما كان آخر النهار ،ورد الخبر أن عيراً لعثمان جاءت من الشام ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتا وزبيبا ،فأناخت بباب عثمان رضي الله عنه ،فلما جعلها فى داره جاءه التجار فقال لهم : « ماذا تريدون»؟

قالوا : إنك لتعلم ما نريد بعنا من هذا الذى وصل إليك فأنت تعلم ضرورة

---

(١) نور الأبصار والحديث رواه البخارى بوجه آخر .

الناس.

قال :« حُبا وكرامة كم تربحونى على شرائى ؟

قالوا: الدرهم درهمين .

قال: أعطيت زيادة على هذا .

قالوا: أربعة ،أو خمسة .

قال: أعطيت أكثر من هذا .

قالوا : يا أبا عمرو ما بقى فى المدينة تاجر غيرنا ، وما سبقنا إليك أحدٌ فمن ذا الذى أعطاك ؟

قال: إن الله أعطانى بكل درهم عشرة أعندكم زيادة ؟

قالوا : لا .

قال: فإنى أُشهدُ الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين (١).

إنه نموذج للكمال الإنسانى الذى لم يكن يعيش فى خيال الفلاسفة الحكماء بل يعيش على ظهر الأرض مع أهل الأرض .

لقد خاض ﷺ معركة بناء الحياة ،وبناء الأمة بكل ما تتطلبه المعركة من تضحية وجهد وفداء. . .هذه الصفات تجعل من عثمان ﷺ من النماذج الإنسانية التى خلقت للخلافة الراشدة ،ومن الشخصيات الإيجابية فى تاريخ حضارتنا ممن كانوا على قدر كبير من الإيمان بالله والاتباع للحق،والسمو فى النفس والإشراق فى الروح، والجمال فى الخلق، والرحمة للناس، والمساهمة فى صميم الحضارة والحياة.

وأفضل من شهد لعثمان بأحقيته بالخلافة هو الفاروق عمر ﷺ الذى قال: «ما أجد أحدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله ﷺوهو عنهم راض ،فسمى ستة وفى مقدمتهم عثمان بن عفان ﷺ ».

(١) نور الأبصار نقلا عن الغرر والدرر .

خلافة عثمان وسياسته فى الحكم :

لما تولى ﷺ الخلافة نهج سيرة المصطفى ﷺ وصاحبيه أبى بكر وعمر فكان عهده عهد رحمة بالناس ،وسمو فى الخلق وعدالة فى الحكم واقترابا من المثل الأعلى للكمال .وكانت خلافته عالمية فى رسالتها ،إنسانية فى نزعتها ،خلقية فى اتجاهها واقعية فى مبادئها ، فكانت أخلد فى التاريخ وأبقى على الزمن وأجدر بالتكريم فتح فى أيام خلافته سابور وإفريقية وسواحل الأردن،وسواحل الروم، واصطخر الأخيرة وفارس الأولى ،وطبرستان ،وسجستان والأساورة .

ونهج المبادئ الرشيدة مع رعيته ونجملها على الشكل التالى :

ـ **البند الأول** :« إن الناس لا ينبغى أن يؤدى اختلافهم فى فروع الدين أو أمور الدنيا إلى أن يقتل بعضهم بعضا،أو يتعدى بعضهم على بعض،بل يجب أن يتعاونوا على فعل الخير ومكافحة الشر عملا بقوله تعالى:﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾ [المائدة:٢]. أما الفصل فيما يختلفون فيه فالله وحده هو الذى يحكم بينهم عملا بقوله تعالى:﴿ **وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ** ﴾ [الشورى: ١٠].

والناس لهم أن يتمتعوا بما أحل الله لهم من الطيبات عملا بقوله تعالى :﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾ [الأعراف:٣٢] .

ـ **البند الثانى** : التفاضل بين الناس عنده ﷺ بمقدار ما يقدم لنفسه وللناس من خير سواء كان قريبا أو من عامة الناس ،عربيا أو عجميا ،عملا بقول النبى ﷺ:« الخلق كلهم عيال الله ،فأحبهم إليه أنفعهم لعياله »(١) .ومن ذلك كان يعتب على عاتبيه بتولية بعض أقاربه قائلا :« يا على أترانى جئت مُنكراً إذْ وصلت رحماً،وسددت خلة وآويت ضائعا ، ووليت شبيها بمن كان ـ عمر بن الخطاب ـ يولى ؟ ، أناشدك الله يا على . . .هل تعلم أن المغيرة بن شعبة كان واليا لعمر؟

(١) رواه البزار.

قال على : نعم ، قال عثمان : فلِم ألامُ إذا وليتُ ابن عامر فى رحمهِ وقرابته ،وليس للمغيرة كبير فضل . . . ؟

إن عثمان رضي الله عنه يرى فى إسناد الولاية إلى نفر من أقربائه نوعا من تألفهم والإحسان إليهم ،واستبقاء ولائهم للإسلام ،فضلا عما أظهروه من كفاءة واقتدار فى الإدارة والقتال . . .كذلك يرى أنه فى إيثاره ذوى الكفاءة والمقدرة على بعض ذوى الفضل والورع ،إنما يتأسى بما كان يصنعه ـ أحيانا ـ أمير المؤمنين عمر ،وقد أقام على بن أبى طالب أيام خلافته عبد الله بن عباس على البصرة ،وعُبيد الله ابن عباس على اليمن ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على مصر وهم أقرباؤه وخاصة أهله . لكن العاتبين يرون أن تقوى الأمير أهم من كفاءته . . وإخلاصه أرجح من ذكائه. . .وأنه إذا كان عمر بن الخطاب قد آثر أحيانا ذوى الذكاء والدهاء والمقدرة فلأنه كان يُحكم قبضته على ولاته وأمرائه جميعا . . . أما الآن والخليفة فى الثمانين من عمره. . . ثم هو بطبيعة حاله طيب ،متسامح هادئ النفس ،مأمون الغضب ،فإن أولئك الأمراء يتصرفون تصرف من ليس وراءه معقب،ولا عليه رقيب .

لم يكن الخليفة عثمان يجهل أخطاء وُلاته ،ولكنه لم يجد مبررا حقيقيا لعزلهم. . .وإذا نظرنا إلى طبيعة الخلافة الإسلامية يومئذ فقد كانت متسعة الأرجاء،شاسعة الأقطار والنواحى ،والمنطق يقتضى إعطاء الولاة صلاحيات أوسع فى التصرف دون استشارة الخليفة ،وهذه الطريقة هى آخر ما توصل إلى صلاحيتها وفعالياتها القانون الحديث . . . ولكل قناعته وطريقته فى الحكم ، والواجب الشرعى يوجب اتباع ولى الأمر فلا أمة ولا جماعة ولا وحدة بنافعة أو قائمة أو منتجة أو متماسكة إذا انعدم فيها عنصر الطاعة . . . إن القطيع يتبع أوله والسرب يطير خلف رائده ،فكيف تكون الجماعة رائدة إنسانية من غير طاعة ،إن الطاعة فى هذا الدين شىء مفروض بداهة :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُم ﴾[النساء: ٥٩] .ويقول الرسول ﷺ :« يا أيها الناس عليكم بالسمع والطاعة فيما أحببتم وكرهتم .ألا إن السامع العاصى لا حجة له ، ألا إن السامع المطيع لا حجة عليه» (١) وفى الصحيحين عن ابن عباس عن رسول الله

(١) رواه أحمد ٤/ ٩٦ .

ﷺ :« من رأى من أمير شيئا فكرهه فليصبر ،فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية» (١)وقال ﷺ :« أيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبدٌ مجدع»(٢) وفى حديث آخر:« ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله عز وجل فاسمعوا وأطيعوا » (٣).

من هذا المنطلق الشرعى رفض أبو ذر الغفارى ﷺ العروض المقدمة إليه أن يتزعم ثورة مسلحة ضد الخليفة ، وقال.

« والله لو أن عثمان صلبنى على أطول خشبة أو أطول جبل لسمعت وأطعتُ وصبرت واحتسبت ،ورأيت ذلك خيرا لى .

ولو سيّرنى ما بين الأفق إلى الأفق لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى .

« ولو ردنى إلى منزلى لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيرا لى ـ وفى نفس الوقت كان عثمان ﷺ يقول : «إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلى فى قيود فضعوها . . . » .

ومن هذا المنطلق رفض على بن طالب ﷺ عرض أبى سفيان بن حرب ذلك أنه لما قبض النبى ﷺ وتولى الخلافة أبو بكر ﷺ ،دخل أبو سفيان ،على الإمام على والعباس يُثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما وسعَهُ من خيل ورجْلٍ ، فنادى بهما .

« يا على ،وأنت يا عباس ،ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها؟ والله لو شئت لأملأنها على أبى بكر خيلا ورجلا وأخذناها عليه من أقطارها ».

وأبو سفيان لا شك لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم . . .ولكنه أراد خلافا يفتح الباب لزعامة أمويّة يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء.

فلم يخف مقصودُه هذا عن على ﷺ وقال :« لا والله لا أريد أن تملأها

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد .
(٢) رواه البخارى وغيره .
(٣) رواه البخارى وغيره .

عليه خيلا ورجْلا ،ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها ثم أنبه قائلا :

يا أبا سفيان. . .إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض ،وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض ،مُتخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم». (١) تلك هى الحقيقة ذاتها ورب الكعبة . . .حيثما كانت الطاعة كانت الجماعة حتى ولو تجاوزت المصالح الذاتية .

ولذلك كان عمر ﷺ دقيقا فى المحافظة على هذا المعنى واستقراره فى نفوس الرعية ، فكان حريصا غاية الحرص على تنفيذ ما يصدره من أوامر ،لا يتساهل فى مخالفتها ، سواء أكان المخالف فى المدينة معه أو فى آخر الأقطار بعيدا عنه .

ومن آثار هذه التربية الإسلامية رفض عبد الله بن مسعود ﷺ العروض المقدمة له لما كتب عثمان إليه يأمره بالقدوم إلى المدينة ،اجتمع الناس فقالوا: أقم ونحن نمنعك أن يصل إليك شىء تكرهه فقال :« إن له علىّ حق الطاعة ،ولا أحب أن أكون أول من فتح باب الفتنة » .

لقد أصاب السنة ﷺ القائلة:« ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ،ومن أطاعنى فقد أطاع الله،ومن عصى أميرى فقد عصانى،ومن عصانى فقد عصى الله »(٢) .

هذه هى مكانة الطاعة فى هذا الدين ،أما اختلاف وجهات النظر وحب التبين والتحقق فليس بعيب ،وله فى الإسلام ضوابطه . . . وأما الاختلاف فى الرأى فلا يحول دون التعاون والبر والصلة .وللناس أن يجادل بعضهم بعضا فيما اختلفوا فيه بالحسنى ،وفى حدود الأدب والحجة والإقناع عملا بقوله تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[العنكبوت: ٤٦] .ولا تجوز البذاءة مع المخالفين ولا سب آرائهم أو عقائدهم ولو كانوا وثنيين عملا بقوله تعالى :﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[الأنعام: ١٠٨] .فكيف مع المؤمنين بل

(١) أبو الشهداء الحسين بن على ص٢٢

(٢) البخارى وأحمد .

مع أمير المؤمنين ؟

لقد استشير عمر بن الخطاب ﷺ من قبل رسول الله ﷺ فى أسرى بدر ولم يؤخذ برأيه، واستشير من قبل أبى بكر أيام خلافته فلم يؤخذ برأيه بل سلم وسكت راضيا دون أن يجد فى صدره حرجا أن يُستشار فى ملأ فلا يؤخذ بمشورته، لعلمه ﷺ عنه أن ليس فى الأخذ من إكبار ، وما فى الترك من إهدار.

المسلم ملزم أن يأخذ برأى الجماعة وكأنه رأيه الذى يعتز به وينتصر له، هذا إذا كان الفرد يحترم نفسه ويحترم رأى المجتمع الذى يعيش فيه ، ويحترم رأى القائم على أمره بأمر الله تعالى . . . فالرأى فى الإسلام شورى ، والشورى احترام للفرد من مجتمعه ، وتقدير من الفرد للمجتمع وللقائم على أمره، ولأن تجتمع أمة محمد ﷺ على رجل أحب من أن تفترق .

والحق يقال: إن كل صحابة رسول الله ﷺ سمعوا لأمير المؤمنين عثمان وأطاعوا ورأوا ذلك خيرا لهم فى دنياهم وآخرتهم ، سوى أجلاف العرب غلاظ الأكباد ، قساة القلوب الذين لم ينالوا حظا من التربية النبوية .

ونحن نُسلم بداهة أن الخليفة « عثمان » لو سار مع الأمراء والولاة على نهج سلفه عمر وكبح جماح الأنفس عن الإغراق فى الطيبات المشروعة لكان ذلك أسلم . لأن الولاة والأمراء يجب أن يظلوا دائما قدوة للآخرين فى بساطة العيش والترفع عن إغراق النعيم (١) وأفضل من عبر عن هذه الحقيقة هو الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز عندما كتب إلى الجراح بن عبد الله الحكمى: « إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك ما يكون حاجزا بينك وبين ما حرم الله فافعل ، فإنه من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام» (٢) . لكن للخليفة عثمان عُذرُه إذا نظرنا إلى رياح التغيير والتطور التى هبت على الأمة الإسلامية الواسعة العريضة من الجهات الأربع، حاملة أمما شتى ، وتقاليد وعادات تضطرم فى موج كالجبال. . . وإذا نظرنا إلى بوادر حياة جديدة تلوح فى الأفق ، ترسل ظلامها

(١) خلفاء الرسول ص٣١٧ .

(٢) البيان والتبيين جـ١

وسمومها شطر الخلافة الراشدة ،إنها ملامح الخلافة الدنيوية ،والثروة والمال والملك الوراثى.

لقد بدأ الموقف بين الخلافة الراشدة والملك العضوض متشابكا ، فنصف الأمة يؤيد الخلافة على نهج النبوة ،والنصف الثانى تواق إلى الملك الوراثى ،إنها عجائب الدنيا فى إقبالها وإدبارها (إذا أدبرت على إنسان سلبته محاسن نفسه،وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره) (١).

ولعل أفضل معبر عن صلة الوصل بين العهدين ما قاله عثمان عن الثوار : «إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة ،وطال عليهم عمرى. . .أما والله لئن فارقتهم ليتمنون لو أن عمرى طال فيهم كل يوم بسنة وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة»(٢).

نفس التعبير عبر عنه الإمام على ﷺ فى خلافة عمر بن الخطاب : لقد نهى عمر أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه فقال له :« إنك متى تسرْ إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب (أى تقتل) لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم. . . ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث إليهم رجلا مُجربا فإن أظهره الله فذاك ما تحب ،وإن تكن الأخرى كنت ردءًا للناس ومثابة للمسلمين»(٣).

عبقرية عثمان يوم الحصار :

روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد قال:« ارتج أُحُد وعليه النبى ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان فقال النبى ﷺ :« اسكن أُحد فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان » .

وروى البخارى عن أبى موسى أنه كان مع النبى ﷺ فى حائط(٤) من حيطان المدينة .فجاء رجل يستفتح ،فقال النبى ﷺ:« افتح له وبشره بالجنة» ففتحت له فإذا أبو بكر ،فبشرته بالجنة،ثم استفتح رجل آخر فقال:« افتح له وبشره بالجنة» ،

(١) عبقرية الإمام على ص١٣٨ .
(٢) خلفاء الرسول ص٣٣٨ .
(٣) عبقرية الإمام على .
(٤) الحائط : البستان .

فإذا عمر ففتحت له وبشرته بالجنة، ثم استفتح رجل آخر وكان متكئا فجلس وقال: « افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه أو تكون » . فإذا عثمان ففتحت له وبشرته بالجنة فأخبرته بالذى قال ،فقال : « الله المستعان » .

تنبأ له الرسول ﷺ بالشهادة والبلوى تصيبه ،فما رجف ولا ارتجف، ولا جنّبَ نفسه مواقع الروع حرصا على حياة ،وما أقام حوله حرساً ولا أجنادا يحفظونه من أمر الله ،بل مضى لشأنه كأى إنسان لا يدرى كيف يموت . . . وما اهتمام عثمان بالموت يأتى بكرة أو عشية ؟ ،وما اهتمامه بالبلوى وقد أوى إلى ركن الله والتجأ به؟ فكل الناس إلى ذهاب ،وكل الناس مصاب ،وهو من الناس،وهكذا يجب أن نكون أيا كانت ظروفنا التى تحيط بنا مهددة أو مطمئنة فما التهديد بمقصر أجلا ولا التطمين بمُطيل عمرا .

وبين غمضة عين وانتباهتها يحيط به ثوار مسلحون يريدون رأسه ،وأمامه فُرص النجاة والخلاص ثم يرفضها جميعا لأنها ستنال من كرامة الخلافة الراشدة التى جاءت رحمة للعالمين .

تقدم إليه المغيرة بن شعبة بهذا الرأى وهذه المشورة :« يا أمير المؤمنين لقد نزل بك ما ترى ، وإنى أُشير عليك بثلاث اختر إحداهن :

إما أن تخرج فتقاتلهم فإن معك قوة وعددا ،وأنت على الحق وهم على الباطل، وإما أن نفتح لك من خلف الدار بابا تخرج منه فى غفلة منهم حيث تحملك رواحلك إلى مكة فإنهم لن يستحلّوا دمك وأنت بها . . .وإما أن تلحق بالشام فإن بها معاوية» .

وهنا تتضح عبقرية الخليفة أريحيته : قال رضي الله عنه :

« أما أن أخرج فأقاتلهم فوالله لن أكون أول من يخلف رسول الله فى أمته بسفك الدماء .

وأما الخروج إلى مكة ،فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوما:

« يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم ،ولن أكون هذا

الرجل » .

وأما خروجى إلى الشام لأن فيها معاوية فلا والله . . . ولن أفارق دار هجرتى ومُجاورة رسول الله ما حييت .

ويدخل عليه زيد بن ثابت وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره فيقول له : «يا أمير المؤمنين ،هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصار الله مرتين» . . . فيجيبه الخليفة الرحيم : « أما القتال فلا » .

ويصيح الخليفة فى الصحابة الذين تجمعوا حول داره ليواجهوا الثوار بالسلاح : « إن أعظمكم عنى غناء رجل كف يده وسلاحه » .

ويرى أبا هريرة شاهرا سلاحه فى اهتياج شديد ، فيدعوه إليه ويقول له : «أيسرّك أن تقتل الناس جميعا وأنا معهم ؟ أما أنك لو قتلت رجلا واحدا لكأنما قتلت الناس جميعا » .

وكان أبو هريرة محصوراً مع عثمان فى الدار،قال أبو هريرة : رُمِى رجل منا فقلتُ : يا أمير المؤمنين الآن طاب الضرب قتلوا منا رجلا . قال عثمان : عزمت عليك يا أبا هريرة إلا رميت بسيفك فإنما يراد نفسى ،وسأقى المؤمنين بنفسى . . . قال أبو هريرة:« فرميت سيفى لا أدرى أين هو حتى الساعة » (١) .

وجاء فى رواية شداد بن أوس ،أن عليا رضي الله عنه خرج من منزله يومئذ مُعْتما بعمامة رسول الله ﷺ ،متقلدا سيفه ،أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم ، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه على ،وقال بعد تمهيد وجيز :« . . .لا أرى القوم إلا قاتليك فمُرنا فلنقاتل » فقال الخليفة :« أنشد الله رجلا رأى لله حقا،وأقر أن لى عليه حقا،أن يهريق فى سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى» .

فأعاد على القول ، فأعاد عليه هذا الجواب . . ثم خرج على رضي الله عنه من عنده

(١) العقد الفريد ٣/ ٦٨ .

إلى المسجد وحضرت الصلاة ،فنادوه : « يا أيا الحسن تقدم بالناس » ، فقال: لا أصلى بكم والإمام محصور ولكنى أصلى وحدى،ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله ،وترك ابنيه مع أبناء زمرة من الصحابة فى حراسة دار الخليفة ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء . . . عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب ، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه .

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة ،فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهُور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه .وما أحسن قول كعب بن مالك فيه :

وكف يديه ثم أغلق بابه وأيقن أن الله ليس بغافل

وقال لأهل الدر : لا تقتلوهم عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل

وهذه هى مبادئ التسامح فى الإسلام التى قامت عليها سياسة عثمان رضي الله عنه . . .فأين مثل هذا الخليفة فى سمو النفس الإنسانية التى بلغت ما لم يبلغه رئيس على وجه الأرض ؟ . . . إنها إحدى عظمات وعبقريات عثمان ،وهى إحدى روائع حضارتنا التى صاغت مثل عثمان ابن الصحراء إنسانا يقف على رأس قمة العظماء كما تقف أمتنا وحضارتنا فى مقدمة الأمم والحضارات .

وأقسم بالله ما مثلُ عثمان والثوار إلا كما قال الشاعر:

ملكنا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح

وما عجبٌ هذا التفاوت بيننا فكل إناء بالذى فيه ينضح

إنها عبقرية تذكر الخليفة بابن آدم الأول الذى قال لأخيه وهو يريد سفك دمه ظلما وعدوانا: ﴿ **لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة :٢٨ ـ ٣٠] .

لقد طبق الخليفة هذه الآيات تطبيقا فعليا ،ووضع نفسه موضع ابن آدم

الأول، وبدل من أن يصد هذا الموقف الرائع وذاك الحياء العظيم تهوُّر المتآمرين على وقار الخليفة ومكانته، إذا هم يتجرؤون عليه .

هنالك مُلئت نفس الخليفة ألما ، وتأججت غضبا ،وقال للمتمردين قولته المأثورة: « . . .أما والله لقد عِبْتم علىّ بما أقررتم لابن الخطاب ، ولكنه وطِئكُمْ برجله، وضربكم بيده ،وقمعكم بلسانه، فدنْتُم له على ما أحببتم أو كرهتم .

أما أنا فلِنْت لكم ،وأوطأت لكم كنفى وكففت يدى ولسانى عنكم فاجترأتم على » .

إنها كلمات متفجعة تكشف عن جُرح طالما أدمى مشاعر صاحبه، وأعيى جوانح قلبه ،وقد آن الأوان للقلب أن يستريح ، وللجرح أن يلتئم .

اقتحموا الباب وتسوروا من وراء الدار ، والخليفة لا يبالى بهم ، ولم يحس بتقحمهم واستمر فى قراءته للقرآن ،ولم يُقاوِمْ ،ولم يتحرك من مجلسه ،ولم يتخل عن مصحفه . . . ولم يزد أن قال حين أصيب كفه بضربة سيف :

« والله إنها لأول يد خطت المُفَصَّل . . . وكتبتْ آى القرآن . . . » .

وحين رأى دماءه تتفجر طوى المصحف حتى لا تطمس الدماء بعض آياته ، طوى المصحف وهو أول من جمعه على حرف واحد ،وأدرك هذه الأمة من زلة الاختلاف وسفك الدماء . . طواه ليهاجر إلى ربه وهو أول من هاجر بأهله فى سبيل الله بعد نبى الله لوط عليه السلام . . . طواه وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧] .

ولما قتل رضي الله عنه فتش المتمردون خزائنه ،فوجدوا فيها صندوقا مقفلا ففتحوه فوجدا فيه حقة مكتوب فيها :

« هذه وصية عثمان بن عفان يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ،وأن الجنة حق ،وأن النار حق،وأن الله يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ،عليها نحيا وعليها نموت ،وعليها نبعث

إن شاء الله من الآمنين برحمة الله » (١).

لما أُذيع خبر محاولات اغتياله ﷺ قال عبد الله بن مسعود :« لئن قتلوه لا يستخلفون بعده مثله» .

وقالت زوجة عثمان ﷺ :« قتلتموه وإنه ليُحيى الليل كله بالقرآن » ؟ وكان الإمام على يقول: أوصلنا للرحم عثمان .

وأما عبد الله بن عمر فقال: كنا نخير بين الناس فى زمان رسول الله ﷺ فنخيّرُ أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان(٢).

وقال محمد بن شهاب الزهرى : قلت لسعيد بن المسيب: هل أنت مخبرى كيف قتل عثمان فقال :« قتل عثمان مظلوما،ومن قتله كان ظالما ،ومن خذله كان معذوراً » (٣).

وسئل سعد بن أبى وقاص ﷺ عن عثمان فقال: « أما والله لقد كان أحسننا وضوءا وأطولنا صلاة ،وأتلانا لكتاب الله،وأعظمنا نفقة فى سبيل الله،ثم ولى فأنكروا عليه شيئا فأتوا إليه أعظم مما أنكروا »(٤).

فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل إلى دفعه ،وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه .ومن الجور الشديد أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة ولا بد لها من شهيد ،وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات ،ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى ﷺ .

أحس بها الصديق أبو بكر فمات وهو يحذر الصحابة بوادر الترف وإقبال الدنيا . . .وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله وهو الشديد فى الله ،والأجدر على حمل الأمة على الحق . . . فضاق ذرعا بالحياة ،وطفق يقول: « اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى وانتشرت رعيتى فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط. . . اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك » فكيف لا يحس بها عثمان وقد أمعن فى السن،وناهز الثمانين من عمره . . .؟

---

(١) نور الأبصار .
(٢) البخارى.
(٣) العقد الفريد : ٥/ ٣٧ .
(٤) العقد الفريد ٥/ ٣٠ .

لقد شاء الله أن يجعل عثمان ﷺ فدية للخلافة الراشدة فى نضالها مع دعاة الخلافة الملكية ، بل مع دعاة الفتنة.

إنه من الظلم الشديد أن يلقى باللوم على خليفة راشد يقاوم بسلم والحوادث حرب عليه والأيام مولية ،ونبرّئ ظالمين أنكروا عليه شيئا فأتوا إليه أعظم ما أنكروا أتوا ظلما وزورا والحوادث فى أيديهم والأيام مواتية؟

الخليفة محق فى موقفه الإيجابى هذا إذا تذكرنا الدروس العملية الأولى التى تلقاها الجيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ .كانت دروسا للعبقرية بها صلة وثيقة ... نعم ... ألم تكن دروسهم الأولى أنهم تعلموا كيف يكون الصبر جميلا...؟﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف:١٨]، ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾[المعارج :٧] ألم تكن دروسهم الأولى أنهم تعلموا كيف يكون الهجر جميلا؟ ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠] ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾[السجدة:٣٠] .

ألم تكن دروسهم الأولى أنهم تعلموا كيف يكون الصفح جميلا؟ ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ [الحجر:٨٥] .

ألم يقل عثمان ﷺ بعد أن زُفّت إليه بشارة الجنة على بلوى تصيبه : والله المستعان ؟ .

لقد تعلم كيف يكون الصبر على البلاء جميلا ،فأكسبه قوة ومقاومة ، وساعده على الصمود فى أجلى صوره ، وجعل نفسه فدية للخلافة الراشدة ليشيع الأمن فى الأمة الإسلامية ويحقن الدم المهدد بالسفك.

لقد تعامل ﷺ مع المعانى الجميلة للآيات الكريمات طهرا وحياء، عبادة وخشوعاً،صدقا مع الله ولُجوءًا إليه .. ثم ابتغاء المكانة عند الله والرضى منه سبحانه .. وإذا بسُمُوِّ النفس وجمال الإنسانية يتمثل جياشا حيا شاخصا أمام عينيه،وتتجسد المعانى فتصبح مادة يتعامل معها .. فيتمالك نفسه حتى لا تنهار أمام المصيبة ...وهكذا يكون الصبر فى هذا الحال وسيلة للعبقرية والعظمة إذ به

يكون الموقف الأحسن والأجدى .

إنها الدروس المكية الأولى تعمل عملها ، فتجعل الصبر مُتقبلا ، فالنفس مطمئنة مرتاحة إلى قدر الله لا ينتابُها القلق ولا يشل حركتها الخوف ، لأن الأمل فى الله كبير ، وفى ثوابه عظيم، كما أن الراحة عظيمة بشعور صاحبها أن الله معه فى صبره يرعاه ويسدد خطاه .

إنها دروس إن لم تقض على مرارة الصبر فإنها تخففها إلى حد كبير . . . وبهذا ظل الخليفة ﷺ فى رحاب الخير، محققا للهدف الأسمى الذى منه تعجب رسول الله ﷺ حين قال: « عجبا للمؤمن أن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١).

لقد أضحى الصبر والصفح لدى الخليفة خلقا استقر فى وعيه وتصوراً استقر فى فكره ، ولغة يعبر بها ، واتقانا يوصف به عمله ، فتنازل عن حقه وعفا ، فلا حنقة ولا حقد . . . وإنما حلم وسعة صدر . . . وبهذا أدى الخليفة ﷺ معنى الصفح الجميل ، فكان التناسق بينهما تاما شكلا ومضمونا . . إنه ﷺ لا يكتفى أن يحس بالصبر ، ولا يقنع أن يتذوق الصفح ، ولكنه يريد أن يشارك فى صنعهما ويصحبا مادة فى طبيعة الحياة .

إنه لون المنهج الذى يحياه ، والمبدأ الذى من أجله يعيش ، ورائحته التى تستنشق عبيرها ، وحيويته التى يمتع بها نظره .

« فالإنسان الذى خلقه الله وصوره ، لا يكون إنسانا حقا ، إلا حينما يستقر فى نفسه المنهج الذى وضعه الله له، وحينئذ تلتقى الصورة الطاهرة مع معناها الحقيقى المناسب ، أو يلتقى الظاهر الذي هو من صنع الله ، مع الباطن الذى تمثل منهج الله فإذا الظاهر والباطن وحدة تامة الانسجام . . وعندها تكمل إنسانية الإنسان صورة ومعنى ، ظاهرا وباطنا » (٢).

وذلك هو أمير المؤمنين ذو النورين عثمان بن عفان ﷺ وألحقنا به صالحين.

---

(١) رواه مسلم .

(٢) الظاهرة الجمالية فى الإسلام ١١٠ .

أبو الحسنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه

على بن أبى طالب رضي الله عنه كان من أحب الناس إلى النبى ﷺ بل من أحبهم إليه على الإطلاق فهو ابن عمه الذى كفله وحماه،وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه لولا قوله تعالى : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[الأحزاب : ٥] . آمن به وصدقه وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ،وكان زوج ابنته العزيزة عنده وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى هم المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته شهد المشاهد كلها ولم يتخلف إلا فى تبوك فإن الرسول ﷺ خلفه فى أهله فقال: يا رسول الله أتخلفنى فى النساء والصبيان ؟ قال النبى ﷺ : « أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى ؟» (١) بل إن عليا تلميذ النبى ﷺ الذى علم من فقهه الدين ما لم يعلمه ناشئ فى سنه ،وتلميذه فى الجهاد وأداء المهمات العظمى أرسله فى السرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد ،وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام وأعطاه الراية يوم خيبر وقال ﷺ :« لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله وهو يحب الله ورسوله » [أخرجه البخارى ومسلم وأحمد] وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله .

أنزل الله تعالى فى على رضي الله عنه الآيات التالية :

قوله تعالى :﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة :١٩ ، ٢٠] . والمراد بالمجاهدين على رضي الله عنه (٢) .

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة:٢٠٧] .

(١) البخارى ومسلم .

(٢) أسباب النزول للواحدى .

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾[المائدة :٥٥] .

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة :٢٧٤] .

* ومن الأحاديث النبوية ما أخرجه الترمذى والحاكم وصححه عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ : « إن الله أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم » قيل: يا رسول الله سمهم لنا . قال: « على منهم ـ يقول ذلك ثلاثا ـ أبو ذر والمقداد وسلمان» .

وأخرج أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه عن حبشى بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ : « على منى وأنا من على ولا يؤدّى عنى إلا على » .

وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال: « آخى النبى أصحابه فجاء على تدمع عيناه فقال :« يا رسول الله آخيت بين أصحابك، ولم تؤاخ بينى وبين أحد، فقال النبى ﷺ « أنت أخى فى الدنيا والآخرة » .

وأخرج مسلم عن على بن أبى طالب قال: « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبى الأمى به أنه لا يُحبُّنى إلا مؤمن ،ولا يبغضنى إلا منافق» .

وأخرج الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال:« كنا نعرف المنافقين ببغضهم عليا» .

وأخرج الحاكم وصححه عن على بن أبى طالب قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فقلت : يا رسول الله بعثتنى وأنا شاب وأقضى بينهم ولا أدرى ما القضاء، فضرب صدرى ثم قال:« اللهم اهدِ قلبه ولسانه» فوالذى خلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين . ولقد كان رسول الله ﷺ يقول:« أقضاكم على»[1].

أما العلاقة بين على رضي الله عنه وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء فكانت علاقة الأخوة الإسلامية المبنية على التعاون فيما اتفق عليه ،والتسامح فيما اختلف

(١) نور الأبصار ص٨٨ .

فيه ،وليس فيها ما يدل على عداوة أو بغضاء .

معلوم أن عليا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه،وأنه لم يزل مدفوعا عن حقه هذا منذ انتقل النبى ﷺ إلى الرفيق الأعلى بالنظر إلى قرابته القريبة جدا به ﷺ وسابقته فى الإسلام وحسن بلائه فى سبيل الله ،وما عهد إليه النبى ﷺ من مهمات جسام يظهر لنا من خلالها ـ والله أعلم ـ أن النبى ﷺ كان يهيئه لأمر عظيم فى يوم ما . . .

من أجل ذلك وغيره قيل : إن عليا تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى ما بعد وفاة زوجته وابنة رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء التى كانت تشاطره الرأى . . . ثم أرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتى معك أحد . .تلقاه وعنده بنو هاشم فقال: «إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكاراً لفضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا ».

إن الإمام على الذى رأى هذا الرأى كان يرى رأيا آخر أسمى وأنبل . . . كان يرى أن الخلافة الإسلامية مسألة عالمية لا توزن بميزان القرابة من رسول الله ﷺ فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه ولم يحذر خطرا على الدين أشد من حذره أن يحسب الناس الخلافة الراشدة سبيلا إلى الملك والدولة فى بنى هاشم. . . وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأبعد معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة والمسؤولية لينفى هذه المظنة ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه لأنفسهم بالمشاورة .

كان الإمام يرى أن يضحى بنفسه إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء ، ويتخلى عما هو أهل له حتى يقبله المسلمون ،ويتهيأ له الزمان ليظهر الدعوة الإسلامية كما أرادها الله ورسوله : دعوة عالمية ،تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب ، تقوم على المساواة بين الناس ، ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة دون الأحساب والأعراق . . .فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة وأن يقام الحكم على هذا التفضيل . . .مع العلم أن بعض المؤرخين أحصوا على الإمام أنه تأخر عن الخلافة نيفا وعشرين سنة . . فلم يخلف النبى ﷺ ولا

أبا بكر ولا عمر . . .ناسين أو متناسين الدروس التى تلقاها فى مدرسة النبى ﷺ فى مكة والمدينة ،الداعية إلى الإيثار والصبر والصفح الجميل. . .

لقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله،وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. فقد كان عمر بن الخطاب يقول« أعوذ بالله معضلة لا على بها »[1] ويقول:« لا أبقانى الله فى أرض لست بها يا أبا الحسن ».وبلغ من فرط حب عمر له أنه تزوج ابنته أم كلثوم رضي الله عنها .

ومن مشورته الصائبة أنه نهى عمر رضي الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه فقال له :« إنك متى تسير إلى هذا العدو بنفسك فتلقاهم فتنكب لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم . . .ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ،فابعث إليهم رجلا مجربا ، فإن أظهره الله فذاك ما تحب ،وإن تكن الأخرى كنت ردءا للناس ومثابة للمسلمين» .

وقد اختص رضي الله عنه محمد بن أبى بكر الصديق ،وكفله بالرعاية ورشحه للولاية. . .وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه وهم : أبو بكر،وعمر وعثمان .

أما بلاؤه الحسن مع عثمان رضي الله عنه أيام خلافته، فكان نعم الوزير والمشير والوسيط وسنتعرض له فى حينه .

فالإمام متفرد بعبقريته فى جميع أموره الدينية والخلقية وهذه تنسب إليه يقول فيها :

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يُمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها ... فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طرا ... صغيرا ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا ... فمن ذا يدعى يوما كيومى [1]

(١) نور الأبصار ص١٨٣ .

عبقرية على فى علمه وشجاعته ومروؤته وزهده وعدله :

وهى عبقرية راشدة بناءة ،ينتفع بها المجاهد فى حربه،والعامل فى مصنعه، والعالم فى درسه ،والفيلسوف فى بحثه ،والقاضى فى محكمته والرئيس فى رئاسته ،بل تلازم الإنسان فى جده وهزله ،وحركته وسكونه ،وليله ونهاره ، ويسره وعسره ،وصحته ومرضه لا تمنعه فى حال عن حال بل تنقله من كمال إلى كمال، وتذكره بالله الذى خلقه ،والأرض التى درج عليها والناس الذين يعيش معهم ، والعالم الذى هو جزء منه فى وحدته الكبرى،وعبودية الله رب العالمين.

وهى عبقرية شريعة وعلم،تحترم العقل وتدفعه دفعا حثيثا وراء المجهول ليصبح معلوما،وعبقرية خلق إنسانى معتدل كريم،يتجافى عن الإفراط فى الرحمة والتفريط فى العدالة وعن الإفراط فى الحب ،والتفريط فى الواجب... وهى عبقرية تشريع ربانى يهدف إلى اليسر والتسامح فى غير إفراط ،وإلى العدل والإنصاف فى غير تفريط تتواخى مصلحة الفرد ضمن مصلحة الجماعة ،ومصلحة الجماعة من غير نسيان مصلحة الفرد ...ومصلحة الأمة ضمن الإطار الإنسانى العام ومصلحة الإنسانية كلها من غير محوٍ لفضائل الشعوب وخصائص الأمم.

علمـــــه:

كان رضي الله عنه أديبا بليغا له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون ... فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين .. والفقيه الذى لا يكذب أهله فى أمر الدين والدنيا ... يقول رضي الله عنه : «اسألونى قبل أن تفقدونى ،فوالذي نفسى بيده لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها ،وقائدها، وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها ».

وعن عبد الله بن عباس أنه قال:« ما انتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعى بكتاب كتب به إلى على بن أبى طالب ،فإنه كتب إلى يقول : أما بعد

(١) نور الأبصار ص٨٨ .

فإن المرء يسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه ، ويسره درك ما لم يكن يفوته ،فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ،وليكن أسفك على ما فاتك منها . وما نلت من دنياك فلا تكثرن به فرحا وما فاتك منها فلا تأس عليه حزنا ، وليكن همك فيما بعد الموت». ولما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ،وما استن النبى ﷺ فاقتديته فلم أحتجْ فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما ،ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخوانى المسلمين ،ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما».

إنه كلام يدل على ثقة صاحبه بنفسه فى سعة علمه واطلاعه .

لقد أحسن الإسلام علما وفقها كما أحسنه عبادة وعملا . فكانت فتواه مرجعا للخلفاء والصحابة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان . . . وندرتْ مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به، أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء . إلا أن المزية التى امتاز بها على رضي الله عنه بين فقهاء الإسلام فى عصره أنه جعل الدين موضوعا من موضوعات التفكير والتأمل ،ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام ، إنه التفكير المحض الخالص الذى يغوص فى أعماق الدين والكون والإنسان والحياة بحثا عن الحقيقة ،ويرقى بصاحبه إلى مصاف العلماء العاملين.

ويصح أن يقال : إن عليا رضي الله عنه أبو علم الكلام فى الإسلام لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه. . . فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ،وأبو هاشم تلميذ أبيه ،وأبوه تلميذ على رضي الله عنه .

وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبى الحسن على بن أبى الحسن على بن أبى بشير الأشعرى،وهو تلميذ أبى على الجبائى، وأبو على الجبائى أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء .

أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر إلى على .

وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى ،وقرأ ربيعة على عكرمة ،وقرأ

عكرمة على عبد الله بن عباس ،وقرأ عبد الله بن عباس على على بن أبى طالب ﷺ ، وقيل لابن عباس: « أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط » (١).

والناظر إلى حِكم الإمام وخطبه وكتبه (٢) يقتنع أن علمه ﷺ إنما هو علم المطبوع الذى يبتكر الحقيقة،والحكيم المجتهد الذى يعتمد على وحى بصيرته وارتجال مزاجه ،وذكاء فكره . . وكيف لا وهو مدينة العلم ،وبابُها،وتلميذ الله تعالى ورسوله ﷺ .

شجاعته ﷺ ومروءته :

اشتهر عنه أنه لم يصارع أحدا إلا صرعه ،ولم يبارز أحدا إلا قتله ،وربما رفع الفارس بيده فألقاهُ على الأرض غير جاهد ولا حافل ،ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه ،فلا يستطيع أن يتنفس . . .وقد يزحْزِحُ الحجر لا يزحزحه إلا رجال . . . وكان إلى قوته البالغة لا يهاب الموت ولا يخاف قرينا من الأقران بالغا من الصولة ورهبة الصيت . . .ولو كان عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية .

إلا أن هاته الشجاعة ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعة الشجعان وهى صفات تجعل صاحبها يتورع عن البغى والظلم . . .فمن تورعه عن البغى قوله لابنه الحسن:« لا تدعُوَنّ إلى مبارزة فإن دعيت إليها فأجِبْ فإن الداعى إليها باغ والباغى مسروع » وقيل له : إن الخوارج خرجوا عليك فبادرهم قبل أن يبادروك فقال: « لا أقاتلهم حتى يقاتلونى وسيفعلون » . . . وهكذا قبل كل معركة صغيرة أو كبيرة يدعو المعتدين إلى السلم ،وينهى رجاله عن المبادأة بالشر. . . فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام .

كان ﷺ وهو أمير المؤمنين ـ لا حرس له يحرسه وقد كثر الناقمون عليه: عن سفيان بن عيينة قال: كان على بن أبى طالب ﷺ يخرج بالليل إلى المسجد، فقال أناس من أصحابه : « نخشى أن يصيبه بعض عدوه ولكن تعالوا نحرسه» فخرج ذات ليلة فإذا هو بنا فقال: ما شأنكم ؟ فكتمناه فعزم علينا فأخبرناه، فقال:

(١) عبقرية الإمام على ص٣٢ . (٢) نهج البلاغة .

«تحرسونى من أهل السماء أو من أهل الأرض ؟ » قلنا : من أهل الأرض قال: «إنه ليس يقضى فى الأرض حتى يُقضى فى السماء» (١) .

أما مروءته فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان :أبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرا أو يجهزوا على جريح، أو يكشفوا سترا أو يأخذوا مالا . . وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهو ألدّ أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوءته اتقاء لضربته وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون : « ولا قطرة حتى تموتوا عطشا . . . فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه أجاز لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنوده وصاح بهم :خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى معسكركم ، وخلوا عنهم ،فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة : أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى فلم يرد عليها شيئا ،ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها فقال رجل أغضبه مقالها : يا أمير المؤمنين ، أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟ . . فانتهره وهو يقول : ويحك ؟. . . إنا أمِرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات ،أفلا نكف عنهن وهن مسلمات ؟ وإنه لفى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة ثم ودّع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها . قيل: إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عمّمَهُن بالعمائم وقلدهن السيوف. . فلما كانت ببعض الطريق ذكرتهُ بما لا يجوز أن يذكر به وتضجرت وقالت : هتك سترى برجاله وجنوده الذين وكلهم بى . . فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن إنما نحن نسوة (١).

وتعدل هذه المروءة فى النبل سلامه صدره من الضغن على أعدى الناس له، وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه . .فرثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة ،ووقف يودعهما (أى طلحة

(١) عبقرية عمر ٢٤ ـ ٣٤ .

والزبير) بكلمات تنم عن صدر مكلوم ، اختتمها قائلا : إنى لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير وعثمان من الذين قال فيهم الله تعالى :﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر :٤٧] . ثم ضم قبريهما بنظراته الحانية الصافية الآسية وقال:

لقد سمعت أذناى هاتان رسول الله ﷺ يقول: « طلحة والزبير جاراى فى الجنة » وذهب قاتل الزبير ـ ظلما وغدرا ـ إلى الإمام على يظن أنه يحمل بشرى قتله لكن عليا صاح حين علم أن بالباب قاتل الزبير يستأذن آمرا بطرده قائلا: بشّر قاتل ابن صفية بالنار، وحين أدخلوا عليه سيف الزبير قبّله الإمام وأمعن فى البكاء وهو يقول :« سيف طالما والله جلا به صاحبه الكرب عن رسول الله ».

ولما سمع قوما من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حروبهم بصفين قال لهم: إنى أكره أن تكونوا سبابين ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم كان أصوب فى القول ،وأبلغ فى العذر ،وقلتم مكان سبّكم إياهم :اللهم أحقن دماءنا ودماءهم ،وأصلح ذات بيننا وبينهم ،واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به .

وأوصى أتباعه ألا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه ،وأفسدوا عليه أمره ، وكانوا شرا عليه من معاوية وجنده لأنه رآهم مخلصين ،وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين .

ولما ضربه ابن ملجم بسيف مسموم وهو خارج للصلاة ،حذر أولياء دمه من المثلة والاعتداء ،وقال لهم:« يا بنى عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون : قُتل أمير المؤمنين ، قُتِل أمير المؤمنين ، ألا لا يقتلن أحدكم إلا قاتلى، انظر يا حسن إن أنا متُ من ضربته هذه ،فاضربه ضربة بضربة ،ولا تُمثّل بالرجل فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » .

هذه بعض جوانب مروءته مع خصومه ،من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها ومن كانت له حرمة ومن لم تكن له قط حرمة ،وهى أندر مروءة عُرفت من مقاتل فى شدة القتال .

وخلاصة هذا كله أن ثقافة الإمام هى ثقافة العبقرى الحقيقى والخليفة الراشد، والعلم المفرد . . . والفارس المجاهد فى سبيل الله يداول بين القلم والسيف ، والجهاد والزهد . بالإقبال على الله بقلب تقى .

زهده وعدله رضي الله عنه :

كان رضي الله عنه ـ وهو أمير المؤمنين ـ يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها ،وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير ويقول : « لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم » قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : « أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب » .

وقال سفيان : « إن عليا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة » .وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة احتراما للفقراء الذين يسكنون بيوت القصب ،وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام .وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على على عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته ،وكسرة خبز يابسة . فقلت: يا أمير المؤمنين،أتأكل مثل هذا ؟ فقال لى: « يا أبا الجنوب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا ـ وأشار إلى ثيابه ـ فإن لم آخذ به خفت ألا ألحق به » .

وأوجز ما يقال عنه رضي الله عنه :إن أحدا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين . . .وكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه .

وأما عدله رضي الله عنه فمن اللحظة الأولى عزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة .وتمرغوا بالدنيا ،وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسلمين ،وأثاروا على عثمان سخط السواد من العامة والغوغاء ،وسخط الفقهاء وأهل الإيمان الغيورين على الدين والخلافة الراشدة . . .ورد أرض الخراج التى وزعتها بطانة عثمان رضي الله عنه ،فصرفها فى وجوهها ورجع إلى خطة أبى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات،مخافة أن تصيبهم بمغرياتها . . . فلما طالبه

طلحة والزبير بولاية العراق واليمن قال لهما :« بل تبقيان معى لآنس بكما » .

وفرض ـ ﷺ ـ الرفق بالرعية على كل وال، فلا إرهاق ولا استغلال ولوكانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال .وكان يقول: « والله لو وجدته قد تزوج به [1] النساء وملك به الإماء لرددته فإن فى العدل سعة . . ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق » .

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على ما فى أيديهم أعسر حساب، وكانوا لتضييقه عليهم يتركون ولايتهم ويستقيلون منها كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة،واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى داراً بثمانين دينارا، وهو يرزق خمسمائة درهم وكان يحاسب ولاته على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها . . . فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة : «أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان ،وتنقل إليك الجفان . . . وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفو ، وغنيهم مدعو. . . » .

لقد حاسب ولاته بما يحاسب به نفسه ﷺ فلم يأمرهم ولم ينههم عن أمر هو عنه بنجوى .

وجدَ درْعه عند رجل نصرانى فأقبل به إلى شريح ـ قاضيه ـ يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه ،وقال : إنها درعى ولم أبع ولم أهب ،فسأل شريح النصرانى : ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ،فاتجه شريح إلى على يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ؟ فضحك على وقال :أصاب شريح ما لى بينة . . . فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى، وأمير المؤمنين ينظر إليه . . إلا أن النصرانى لم يخط خُطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ،أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه يقضى عليه ؟ . . .أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ،الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين،

(١) أى من القطائع وأرض الخراج .

فخرجت من بعيرك الأورق. فقال الإمام على : أما إذ أسلمت فهى لك وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاء فى قتال الخوارج يوم النهروان».

وقد لخص ضرار بن ضمرة عبقرية الإمام فى دينه ودنياه وفيما ذكرناه فقال: «والله كان بعيد المدى ، شديد القوى، يقول فصلا ،ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه وينطق بالحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ،ويستأنس بالليل وظلمته وكان والله غزير الدمعة ،طويل الفكرة ،يقلب كفه ،ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ،ومن الطعام ما جشب ،كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدئنا إذا أتيناه ،ويأتينا إذا دعوناه ،ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لا نكلمه هيبة ،ولا نبتديه لعظمه .فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يُعظم أهل الدين ،ويُحب المساكين،ولا يطمع القوى فى باطله ،ولا ييأس الضعيف من عدله، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض المواقف ،وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ المسكين، ويبكى بكاء الحزين وكأنى أسمعه يقول: يا دنيا غرى غيرى ، أبى تعرضت أم إلى تشوفت؟ هيهات هيهات قد باينتك ثلاثا لا رجعة لى فيها فعمرك قصير وعيشك حقير وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق» .

ودخل رجل على الحسن البصرى فقال: يا أبا سعيد إنهم يزعمون أنك تبغض عليا، قال: فبكى الحسن حتى اخضلت لحْيته ثم قال: كان على بن أبى طالب سهما صائبا من مرامى الله على عدوه وربانى هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابة من رسول الله، لم يكن بالنومة عن رسول الله ، ولا الملولة فى ذات الله ، ولا السروقة لمال الله أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة، ذلك على بن أبى طالب يالكع» [1] فلا عجب إذا أصبح اسم على علما يلتف به كل مغضوب ، وصيحة يطالب بها كل طالب إنصاف ،ولا عجب إذا قامت باسمه دول إذا لم تقم له دولة فى عهده ،ولا عجب إذا نشأت انتصارا له دعوات شيعية، ومذاهب علوية ،وفرق شتى تعلى شأن الإمام وتجعله علما مفردا

(١) العقد الفريد ٥/٥٦ .

فى تاريخ الأمم والشعوب عبر التاريخ إلى يوم القيامة .

وساطة الإمام على بين الخليفة عثمان والثوار وطبيعة العصر :

من غير المعقول أن نقتنع بعبقرية على كرم الله وجهه وتفوقه على خصومه جميعا بالحجة الشرعية والبرهان المنطقى إذا نحن أغفلنا حالة الأمة الإسلامية فى السنوات الصعبة الأخيرة من خلافة ذى النورين ﷺ ،أو تغافلنا عن معرفة طبيعة العصر الذى تولى فيه على خلافة المسلمين ،والموقف الحرج الذى كان فيه .

فعصر أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الأمة الإسلامية .

وعصر عمر كان هو العصر الذى تم فيه إنشاؤها .

وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون المجتمع الإسلامى بعد نشأة الأمة وتمام بنائها ،وبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة وظهر على الساحة ولاة أقرب إلى الترف ومحاكاة الملوك ، فقد كان معاوية بن أبى سفيان يعمل على اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم واتقاء أسباب التمرد فما سمع صيحة فتنة إلا بادر إلى إخمادها بالمال أو السيف طلبا للاستقرار والدوام . وكان عمر بن الخطاب ﷺ إذا نظر إليه ـ وهو يحاكى الملوك فى هيئتهم ولباسهم ـ يقول: هذا صناجة العرب .

فإذا سأله عمر عن سر هذا التغيير علل بأن أعداء الإسلام المتاخمين للشام يتتبعون أخبارهم ،ويجب إظهار هيبة السلطان لهم ،فلا يقربوهم ، فكان عمر ﷺ يجيبه فى حيرة شديدة : « لا آمرك ولا أنهاك»، فلما ولى عثمان ـ وفيه لين ـ تجاوز معاوية حدود المعتاد فبنى وشيد وأنفق المال بلا حدود ،فارتفعت عليه وعلى أمثاله ثورة أبى ذر الغفارى بالنكير،وطفق يطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل الله حتى ولع الفقراء بصيحته .

وقد كان أبو بكر وعمر ﷺ يمسكان كبار الصحابة بالحجاز فلا ينطلقوا فى مشارق الأرض ومغاربها يقبلون على الدنيا ،ويتشاجرون عليها فينصدع شمل الأمة بالانتصار لأحد دون الآخر فتكون فتنة.

ولهذا أوصى خليفته من بعده فقال: « احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم ،وأحبَّ كل امرئ منهم نفسه، وأن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه ،واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفْت الله »،فلما ولى عثمان أهمل هذه السياسة ،وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز، فانطلقوا وانتشروا فى الأرض .

وكان من جراء لين الخليفة وانتشار الصحابة أن انقسمت الأمة ـ معنويا ـ إلى قسمين :

القسم الأول: راض عن النظام الاجتماعى السائد فى خلافة عثمان رضي الله عنه .

والقسم الثانى: تواق إلى النظام الاجتماعى الذى كان عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم يكن طبيعيا أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد، تنسى فيه النفوس الإنسانية وتنتشر المطامع ، وتسهو عن الحزازات ،وتستعذب الألم والفداء والجهاد فى سبيل الله ،لا سيما أن رسول الله ﷺ قال: « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون الملك بعد ذلك » ،مع العلم أن الصمود على سُنة النبوة والخلافة الراشدة باق، ومرفوع الدعائم لكن ليس كذى قبل .

لقد عِيب على الخليفة أمورٌ فعلها عمر بن الخطاب فلم يجرؤ أحد عتْبه لشدته فى الحق،وحبه فى الله ،فدانت له النفوس أما وقد ولى صاحب الحياء العظيم، واللين . . .فقد تجرأ الولاة ،وحرضوا بجرأتهم هذه الغوغاء ورعاة الشاء.

فى هذا الجو الساخن كان موقف الإمام على أصعب موقف يتخيله العقل. . . كان ناقدا لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب الرعية، ناصحا للخليفة بما يضمن له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وكان فى نفس الوقت محط أنظار الثوار ووجهتهم ،يشكون إليه ظلم الولاة فالثوار يحسبونه أول مسؤول عن السعى فى نصح الخليفة وتحذيره ،والخليفة يحسبه أول مسؤول عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار .

إنها أزمة محفوفة بالمصاعب من كل جانب ،وليس للإمام على رضي الله عنه منها محيد ولا خلاص . . وكان يؤمر تارة بمغادرة المدن ليكف الناس عن الهتاف

باسمه خليفة للسلمين ويُستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة . فلما تكرر ذلك قال لابن عباس الذى حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله فى ينبع: «يابن عباس . . . ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى ناضحا بالدلو أقبل وأدبر . . بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم الآن يبعث إلى أن أخرج والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما » .

ثم كتب عثمان إلى على ﷺ يقول له: « إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره . . . وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمى ، وطمع فى منْ لا يدفع عن نفسه:

فإن كنت مأكولا فكن أنت آكلى وإلا فأدركنى ولمّا أُمزَّق»

فعاد على ﷺ واجتمع إليه الثوار وسألوه أن يكلم عثمان فى شأنهم فأقبل حتى دخل عليه فقال: «إن الناس ورائى قد كلمونى أن أكلمك ، والله ما أدرى ما أقول لك ، ما أعرف شيء تنكره وما أعلمك شيئا تجهلهُ ، وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك ، ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . . . وما نبصرك من عمى ، وما نعلمك من جهل ، وإن الطريق لبين واضح .

تعلم يا عثمان أن أفضل الناس عند الله إمام عدل هُدِى ، فأحيا سنة معلومة ، وأمات بدعة مجهولة ، وأن شر الناس عند الله إمام ضلالة ضل وأضل فأحيا بدعة مجهولة وأمات سنة معلومة . . . وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالإمام الجائر يوم القيامة ليس معه ناصر ، ولا له عاذر ، فيلقى فى جهنم فيدور دور الرحى يرتطم فى غمرة النار إلى آخر الأبد »، وأنا أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول ، فإنه يقال : يقتل » [١] فخرج عثمان ، ثم خطب خطبته التى أظهر فيها التوبة وتوسط على بن أبى طالب بين الخليفة والثوار مرات دون جدوى ، فتفاقمت الفتنة وأحاط الثائرون ببيت عثمان لا يتراجعون إلا أن يعتزل أو يسلمهم مروان بن الحكم ، أو يعزلوه قسرًا .

وقد دافع الإمام على عن عثمان جهد جهده لكن دون جدوى [٢] وإذا الحوادث ولت فقد ينفع الخطأ ، وقد يضر الصواب ، وقد يهزم المحق ، وينتصر الظالم المبير .

---

(١) العقد الفريد ٥/ ٥٨ .

(٢) انظر : ما كتبناه عن دفاع على عن عثمان ﷺ .

طبيعة العصر :

يقول العقاد رحمه الله :« أما عصر الإمام فلم يثبت كل الثبوت ،ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناء جديدا فى طريق التمام . . .لم يكن بناء متداعيا فكله هدم واندثار،ولا بناء قائما مفروغا منه فكله رسوخ واستقرار .

والعجيب فيه أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه إلى قسمين متقابلين:

* قسم يناصر عليا وفيه جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها ،ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون فى رأيهم وفاقا لحكم القرآن .

* وقسم وهم أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما، ومنهم أصحاب الثروات الذين يرغبون فى بقاء الحالة القائمة ، خصوصا وأنهم عرفوا مذهب الإمام فى محاسبة الولاة . . وغير الولاة .

فعصر على ﷺ كثر فيه الشاكون وهم على الشكل التالى :

- أناس يشكون غلبة قريش على الولاية والغنائم العبيد والموالى والأعراب المحرومون مغتاظون لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة ، وشرع لهم شريعة الإنصاف .

- وفيهم كل منافس على الخلافة متطلع إليها .

- وفيهم المطالبون بدم عثمان ﷺ .

- وفيهم المتآمرون على قتل عثمان ويرغبون فى البديل .

- وفيهم البرءاء من هؤلاء وهؤلاء وجلهم من أكابر الصحابة كعمار بن ياسر وخباب بن الأرت ،وسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن مسعود وبقية أهل بدر الذين بايعوا عليا .

هذه الفئات كلها كانت متواجدة فى الجزيرة العربية والعراق وهى قسمة على ابن أبى طالب ﷺ . وفيما بعد ستنضاف أقسام أخرى منها :الخوارج وغلاة الشيعة والرافضة الذين يؤلهون عليا .

أما الشام الذى فيه معاوية فلم يكن يعرف هذه الأقسام . . . لقد استمال معاوية - بنهجه سياسة الملوك - كل ضعاف القلوب فى حين أخفق مع كبار الصحابة ﷺ : أرسل إلى سعد بن أبى وقاص ،وإلى عبد الله بن عمر وإلى محمد بن مسلمة، وسرعان ما تلقى معاوية منهم دروسا فى القناعة والثبات على المبدأ جعلته يندم على ما فعل.

أما عبد الله بن عمر فقد أرسل إليه يقول: أما بعد ،فإن الرأى الذى أطمعك فى هو الذى صيرك إلى ما صيرك إليه .

إنى ما تخلفت عن على لطعن منى عليه ،فلعمرى ما أنا كعلى فى الإيمان والهجرة ومكانه من رسول الله ﷺ ونكايته بالمشركين ولكن حدث أمر لم يكن لى فيه من رسول الله عهد ففزعت فيه إلى الحيدة فاكفف عنا نفسك .

وأما سعد بن أبى وقاص فقد رد عليه قائلا : . . .وإن هذا الأمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره وأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما لكان خيراً لهما والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت ،وما كنت لأقاتل عليا وقد سمعت رسول الله ﷺ :« أنت منى بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبى بعدى » .

وأما محمد بن مسلمة فقد كتب إلى معاوية يقول: . . . وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ولا اتبعت إلا الهوى فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا . . . ولئن كنت أبصرتُ فى الأمر خلاف ما تريد فلا خرجتُ بذلك من نعمة ولا صرتُ إلى شك وإنى لأدرى بالصواب منك .

كان من الخير لمعاوية أن يتعظ بدروس ومواعظ هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله ﷺ وأن يفيق على أصواتهم التى تنطق بالحق ،ولكنه أخلد إلى الدنيا واتبع هواه ،ورفع شعار الثأر لدم عثمان ،وفى الأمة من هو أولى منه بدمه .

من جهة أخرى فالتنافس على أشده بين مكة والمدينة والكوفة ، فلا أحد منهما بما ترضى به الأخرى ، فقريش قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمى

والإمام يعرف أن قريشا لا تريده لقولهم :«إن ولىّ عليكم بنو هاشم لن تخرج منهم أبدا . . . وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم»،والبصريون يريدون طلحة والكوفيون يريدون الزبير . . . والمصريون يلحون على على .

وعلم على ﷺ أن قريشا لا ينصرونه ، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة لأن قريشا هاشميون فى معظمهم وهم لا يتفقون على بيعته .

خلاصة القول : أن العصر أضحى وشيكا من الملك وصار غريبا عن الخلافة الراشدة . . .وقد تهيأ للملك أسبابه ودواعيه الاجتماعية ورجاله،فالعصر يطلبهم وهم يطلبونه.ومن المستحيل أن يحارب رجل العصر والعصر يرفُضُه،كما من المحال أن يطلب الملك الخلافة الراشدة والخلافة فيه زاهدة .ذلك هو سر التعارض بين الرجلين والتناقض بين العهدين﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاس﴾ [آل عمران: ١٤٠]. ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[الأعراف: ٣٤] .

عبقرية الإمام على مع خصومه :

مقدمة:

يجب أن نعلم أن صحابة رسول الله ﷺ ما تصرفوا يوما لهوى ،ولا لدنيا يصيبونها ،ولكنهم تصرفوا ابتغاء وجه الله مجتهدين ،فمنهم من أخطأ فتدارك خطأه كأُمّ المؤمنين عائشة والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ﷺ أجمعين ومنهم من أصاب كأمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ ،ومنهم من اعترف بخطئه بعد فوات الأوان كعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان . . .والعصمة لا تكون إلا لنبى .

ومعلوم أن يكون أدب المسلم مع صحابة رسول الله ﷺ رفيعا ، ساميا . . وقد لا يكون هوى أحدنا مع بعض الصحابة ،فما فى هذا من إثم ولا حرج كما قال الإمام النخعى وقد عرض ذكر الصحابة يوما: على أحب إلى من عثمان ،

ولأن أخرَّ من السماء أحب إلى من أن أتناول عثمان بسوء» (١) . . أما أن نتناول واحدًا منهم بما لا يليق انتصاراً لغيره فهذا هو الخطأ العظيم.

يجب أن يكون الأدب معهم رفيعا للأسباب الآتية:

أولاً :أن الله تعالى رضى عن المهاجرين والأنصار ،ومدحهم فى كتابه الكريم مرات عديدة : يقول الله تعالى: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ** ﴾ [التوبة: ١١٧] ، ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ** ﴾ [التوبة: ١٠٠]، ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح :١٨]، فأى إسلام سليم لمن يهاجم من مدحهم الله ورضى عنهم ؟أنحن أعلم بهم أم الله ؟!

ثانيا :أن الله اصطفاهم لصحبة رسوله وحمل رسالته ،فأي إسلام سليم لمن يهاجم قوما قام الإسلام على أكتافهم ،وانتشرت الدعوة الإسلامية على أيديهم أيما انتشار ؟ . . . ألم يقل الله تعالى : ﴿ **قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى** ﴾ [النمل:٥٩] وهل هناك اصطفاء أفضل من هذا الذى ذكرنا؟

ثالثا: نهى رسول الله ﷺ عن سبهم أو نيلهم بسوء ،ويتجلى هذا فى الأحاديث التالية :

« الله الله فى أصحابى لا تتخذوهُم غرضا بعدى،فمن أحبهم فبحُبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ،ومن آذاهم فقد آذانى ،ومن آذانى فقد أذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه » (٢) .

« لا تسبوا أصحابى فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهبا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه» (٣).

رابعاً: أن الأئمة الأعلام من السلف الصالح اعترفوا بفضلهم وسبقهم:

---

(١) الطبقات ٦/ ١٨٩ .

(٢) الحديث رواه البخاري .

(٣)مسلم والبخاري .

يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه : « إن موقفا واحدا من مواقف الصحابة مع رسول الله ﷺ ساعة خير من موقف أحدنا طوال حياته [١].

وقال الإمام النووى: «إن الصحابة رضي الله عنهم كلهم من صفوة الناس وسادات الأمة، وأفضل ممن بعدهم ،وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم » [٢] .

ويقول الإمام ابن عبد البر:« ولا أعدل ممن ارتضاهم الله بصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام» [٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :« ويمسكون عما شجر بين الصحابة . . وهذه الأثار المروية فى مساوئهم منها ما هو كذب ومنها ما زيد فيه ونقص ، وغيّر وجهه، والصحيح منه هم فيه معذورون ،إما مجتهدون مصيبون وإما مجتهدون مخطئون ، وكل واحد من الصحابة ليس معصوما من كبائر الإثم ،بل يجوز عليهم الذنوب فى الجملة ، ولهم من السوابق والفضائل ما يوجب مغفرة ما صدر منهم إن صدر حتى إنه ليغفر لهم من السيئات ما لا يغفر لغيرهم» [٤] .

ودخل رجل على ابن عمر فسأله عن تلك المشاهد فقال:« كففت يدى فلم أقدم والمقاتل على الحق أفضل » [٥].

ويقول القرطبى :« إن الصحابة اشتركوا فى الصحبة،ثم تباينوا فى الفضائل بما منحهم الله من المواهب والوسائل ،فهم متفاضلون بتلك ، مع أن الكل شملتهم الصحبة والعدالة والثناء عليها » [٦].

وعلى ضوء هذا الفهم يجب أن يكون تناولنا لأصحاب رسول الله ﷺ سليما من الأذى ولا بأس أن نعرف المصيب من المخطئ حتى نكون على بينة من الأمر. . . ونعطى لكل ذى حق حقه .

ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة ،يعترف أن عليا رضي الله عنه كان هو المحق

(١) شهيد المحراب ص١٢٥ .
(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٤ .
(٣) الاستيعاب ١/ ٣ .
(٤) العقيدة الواسطية .
(٥) الاستيعاب ٢/ ٣٣٥ .
(٦) شهيد المحراب ص١٢٧

المصيب فى تلك الحروب، وهذا اعتراف بعيد عن تطرف الشيعة . . . ومذاهبها وفرقها ومن هذا المنطلق أتناول عبقرية الإمام مع خصومه، ولا أعنى بالخصوم الأعداء وإنما أعنى المخطئين لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ولقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠] ، ولأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولأن المصر على الذنب حسابه عند ربه.

*** عبقرية الإمام على مع المطالبين بالثأر لدم عثمان:**

لما طُولب الإمامُ على بالاقتصاص من قتلة عثمان قال: « كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم؟ . . . هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم وهم خلالكم يسومُونكم ما شاؤوا ، فهلا ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟

*** عبقريته مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :**

تتجلى فى كتابه إليها يقول: « أما بعد فإنك خرجت من بيتك تطلبين أمرا كان عنك موضوعا ، ثم تزعمين أنك لم تريدى إلا الإصلاح بين الناس، فخبرينى ما للنساء وقود العسكر ، وزعمت أنك مطالبة بدم عثمان وعثمان رجل من بنى أمية، وأنت امرأة من بنى تميم بن مرة . . لعمرى إن الذى أخرجك لهذا الأمر وحملك عليه لأعظم ذنبا إليك من كل أحد ، فاتقِ الله يا عائشة وارجعى إلى منزلك واسبلى سترك والسلام » .

إن الناظر إلى هذا الكتاب يتبين له الحق فى أجلى معانيه وأوضح صوره .

ولنسمع إلى أم المؤمنين عائشة وقد قاربت السبعين أيام خلافة معاوية، وقد أحست بدنو الأجل فقيل لها: تدفنين مع رسول الله فقالت: لا إنى أحدثت بعده حدثا فادفنونى مع إخوتى بالبقيع» (١) ولعل الأمر الذى أحدثته هو خروجها من بيتها من المدينة إلى مكة ثم البصرة والله تعالى قال لها ولأزواج النبى ﷺ: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُن ﴾[الأحزاب: ٣٣]. . . ثم إنهم ساروا متوجهين نحو البصرة، مروا بمكان

(١) العقد الفريد ٥/ ٦٠ .

اسمه « الحـوْأب » فنبحتهم كلابه ،فـقالت عائشة: أي مـاء هذا ؟ قيل: هذا ماء حوْأب، فصرخت وقالت:« إنا لله وإنا إليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه :« ليت شعـرى أيتكن تنبحها كـلاب الحوأب » ثم قالت ردّونى إلى بيتى بالمدينة ، فقيل لها :« ليس هذا ماء حوأب» (١) .

إن فى كـلام رسول الله ﷺ : « أيتكن تنـبحـها كـلاب الحوأب»؟ تعـجب واستـغراب ودهشـة إذْ كيف لزوجـة من أزواجه أن تصل إلى هـذا المكان البعـيد بالعراق وتقطع مئات الأميال،وهى التى قال الله لها: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣].

« ذكر الثـعلبى وغيـره أن عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها إذا قرأت هذه الآية تبكى حتى يبل خمارها. .قال ابن عطية: بكاء عـائشة إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل وحينئذ قال لها عمار بن ياسـر : إن الله قد أمرك أن تقرى فى بيتك .قال العلماء رحمـة الله عليهم : إن عـائشة رضي الله عنها نذرت الحج قبل الفـتنة فلم تر التخلف عن نذرها ، ولو خرجت فى تلك الـثائرة لكان صوابا لها . . .ولـكن تعلق الناسُ بها وشكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة وتهارج الناس،ورجوْا بركتها ،وطمِعوا فى الاستحياء منها إذا وقـفت إلى الخلق وظنت هى ذلك فخرجت بالله فى قوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾[الحجرات :٩] . . . فلم يرد الله تعالى بسابق قضائه ونافذ حكمه أن يقـع إصلاح ولكن جرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان فعمد بعضهم إلى الجـمل فعرقبَه ،فلما سقط الجمل لجنبه أدرك محمد بن أبى بكر عائشة رضي الله عنها فاحتملها إلى البـصرة ،وخرجت فى ثلاثين امرأة قرنهن على بهـا حتى أوصلوها إلى المدينة برة تقية مـجتهدة ،مصـيبة مثابة فـيما تأولت، مأجورة فيما فعلت إذ كل مجتهد فى الأحكام مصيب» (٢) .

وذكر الثعلبى: أيضا أن أم المؤمنين سودة قيل لها : لم لا تحجّين ولا تعتمرين كما يفعل أخواتك؟ فقالت: قد حجَجْتُ واعتمرت وأمرنى الله أن أقر فى بيتى.قال الراوى: فوالله ما خرجت من باب حجرتها حتى أخرجت جنازتها رضوان الله عليها (٣).

---

(١) نور الأبصار ص ١٠٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ١١٨ .
(٣) المرجع السابق ١٤ / ١١٧ .

*** عبقرية الإمام على مع طلحة والزبير :**

ما حارب على ﷺ عدواً له سابقة به إلا ذكره بتلك السابقة واستنجد بالصداقة الأولى واستشهد بها على العداوة الحاضرة .

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل ، خرج الإمام على حاسرا لا يحتمى بدرع ولا سلاح ،ونادى :يا زبير اخرج إلى .فخرج إليه ، فلما تقابلا اعتنقا وعاد على يسأله: ويحك يا زبير ما الذى أخرجك ؟ قال: « دم عثمان».

قال على :« قتل الله أولادنا بدم عثمان . . . يا زبير نشدتك الله أتذكر يوم مرّ بك رسول الله ﷺ ونحن بمكان كذا فقال لك :« يا زبير ألا تحب عليا؟» فقلت له: ألا أحب ابن خالى وابن عمى ومن هو على دينى ؟؟ . . .فقال لك: «يا زبير أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم . . . » .

قال الزبير ﷺ :« أذكر الآن وكنت قد نسيتُه والله لا أقاتلك» .

ثم توجه إلى طلحة فقال له: يا طلحة أجئت بعرس رسول الله تقاتل بها وخبأت عرسك فى البيت ؟ لقد أقلعا ﷺ عن القتال والاشتراك فى هذه الحرب لما تبين الحق لهما لا سيما وقد أبصرا عمار بن ياسر يحارب فى صف على ﷺ، وتذكرا قول النبى ﷺ :« عمار لم يمت وإنما تقتله الفئة الباغية » .

وفى رواية أخرى قال الزبير ﷺ لما تبين له الحق : والله ما وقفت موقفا ولا شهدت مشهدا فى شرك ولا فى إسلام إلا ولى فيه بصيرة وأنا اليوم على شك من أمرى ،وما أكاد أبصر موضع قدمى (١).

وشق الصفوف وخرج من بين المقاتلين آخذا طريق مكة ، فنزل على قوم فقام إليه عمر بن جرموز فأضافه وخرج معه إلى وادى السباع وأراه أنه يريد مسايرته ومؤانسته فقتله غيلة وغدرا وهو ساجد لله تعالى وقيل وهو نائم ، وأخذ سيفه وخاتمه ومضى يقصد عليا ظانا أنه يزف إليه البشرى فلما استأذن عليه قال ﷺ بشروا قاتل ابن صفية بالنار.

وأما طلحة فأصابه سهم من مروان بن الحكم غدرا، والله أعلم.

(١) نور الأبصار ص١٠٢ .

*** عبقرية الإمام على مع معاوية :**

من خلال الرسائل التى كانت بين الإمام عـلى ومعاوية تبين بما لا يدع مجالا للشك أن السبب الرئـيسى فى رفض معاوية البيعة هو عدم دفـع أمير المؤمنين على قتلة عثـمان للقصاص منهم وهم ألـوف يحملون السلاح ،والإمام لم يـسكن بعد إلى سلطـان يعينه على القـصاص ،وكان الإمام رضي الله عنه يقول : كيف أصـنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ؟

ويحق لنا أن نتساءل :ماذا صنع معاوية بـقاتلى عثمان حين صار الملك إليه ؟ وحين استتب له السلطان ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذى من أجله ثار واستباح القتال ؟

إنه لم يفعل شيئا ،وأبى أن يذكـر الثأر . . . ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخـل بيت عثمان صيـحة عائشة ابنة عـثمان وهى تبكى وتـقول: وا أبتاه «فلم تزده هذه الصيحةالمثيرة إلا إصْرارا على الإغضاء والإعفاء، وقال لها يعزيها: يابـنة أخى إن النـاس أعطونـا طاعة وأعطـيناهـم أمانا وأظهـرنا لهـم حلما تحـته غضب،وأظهـروا لنا طاعة تحتـها حقد، ومع كل إنـسان سيفُه ،وهو يـرى مكان أنصاره . . .فإن نكثنا بهم نكثوا بنـا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ،ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيراً من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين. . .»[1].

نستنتج من هـذا أنه لو كانت الثورة والحروب كلها من أجل عـثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين ، ولكان عذر على فى بداية المحنة أعظم حجة وأحق بالقبول.

ولنستمع إلى وصية معاوية عند موته : قيل لما حضرته الوفاة أوصى أن يكفن فى قميص كان رسـول الله ﷺ كساه إياه وأن يجعل مما يلـى جسده ،وكان عنده قلامة أظـافر رسول الله ﷺ فأوصـى أن تسحق وتجعل فـى عينيه وقال:« افـعلوا ذلك وخلوا بينى وبين أرحم الراحمين»[2]وهناك رواية أخرى مفادها أن معاوية كان يشعر بفادح الخطـأ ويعانى من تقريع الضمير ويقول :« مـالى ولأبى الحسن مالى

(١) عبقرية الإمام على .

(٢) شهيد المحراب ص ١٣٠ .

ولأبى الحسن » (يعنى على بن أبى طالب) .

من خلال هذه الخواتم يتبين لنا مدى الشعور بالذنب تجاه الأحداث المؤلمة ، وما اقترف فيها من آثام . . . نعم : « خلوا بينى وبين أرحم الراحمين » تعبير له دلالته ،وكلمات تنم عن شعور بالذنب وفداحة الكرب من قبل أول ملوك الإسلام.

روى ابن كثير قال: قال معاذ بن جبل : قال رسول الله ﷺ :« إن هذا الأمر بدأ رحمة ونبوة ،ثم يكون رحمة وخلافة ، ثم كائن ملكا عضوضا، ثم كائن عُتُوا وجبرية وفسادا فى الأرض يستحلون الحرير والفروج والخمور ويرزقون على ذلك وينصرون حتى يلقوا الله عز وجل » .

وقال سفينة مولى رسول الله ﷺ ،قال رسول الله ﷺ :« الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا عضوضا» ،وإنما كملت ثلاثين سنة بخلاف الإمام الحسن بن على فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية فى شهر ربيع الأول سنة ٤١ للهجرة، وذلك كمال الثلاثين سنة من الإسلام ،وقد روى أن معاوية كان يقول: «أنا أول الملوك » (١) .

هذا وقد تنبأ له رسول الله ﷺ بالولاية وقال له: « إذا وليت فأحسن» (٢) وكان معاوية يؤمن بهذه النبوءة ويتوقع تحقيقها .

إذا كان هذا عن معاوية فماذا عن عمرو بن العاص ؟

فى السنة الثالثة والأربعين أدركته الوفاة بمصر حيث كان واليا عليها ،وراح يستعرض حياته فى لحظات الرحيل فقال:

« كنت أول أمرى كافرًا . . . وكنت أشد الناس على رسول الله . . . فلو مت يومئذ لوجبت لى النار .

(١) معجم الأوائل ص٢٦

(٢) أسد الغابة ٥/ ٢١٢ .

ثم بايعت رسول الله فما كان فى الناس أحد أحب إلى منه ،ولا أجل فى عينى منه ولو سئلت أن أنعته ما استطعت لأنى لم أكن أقدر أن أملأ عينى منه إجلالا له . . . فلو مت يومئذ لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم بليت بعد ذلك بالسلطان وبأشياء لا أدرى أهى لى أم على » . . . ثم رفع بصره إلى السماء فى ضراعة مناجيا ربه الرحيم قائلا :

« اللهم لا برىء فأعتذر،ولا عزيز فانتصر وإلا تدركنى رحمتك أكن من الهالكين ».

كلمات أيضا تعبر عن الندم العميق ،وعن الشعور بالذنب تجاه ما حدث ، فرضى الله عنهم أجمعين وألحقنا بهم مسلمين .

ولنرجع إلى معاوية بن أبى سفيان وهو على مشارف السنة الستين من الهجرة النبوية ، لقد قرر أن يأخذ البيعة لابنه يزيد من بعده فكتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة ، كتاب البيعة ،وأمره أن يقرأه على المسلمين فى المسجد . . . وفعل مروان،ولم يكد يفرغ من قراءته حتى نهض عبد الرحمن بن أبى بكر فقال: « والله ما الخيار أردتم لأمة محمد ،ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل ».ولم يكد عبد الرحمن يصرخ فى وجه مروان بهذه الكلمات القوارع حتى أيده فريق من المسلمين على رأسهم: الحسين بن على ،وعبد الله بن الزبير ،وعبد الله بن عمر. . . ولقد طرأت فيما بعد ظروف قاهرة ـ لا يتسع لها مجال الكتاب ـ اضطرت إلى أن تولى يزيد الخلافة ليستمر الصراع بينه وبين الحسين وعبد الله بن الزبير إلى أن يشاء الله تعالى .

أما عبد الله بن عمر فلقد عمّر طويلا ،وعاصر الأيام التى كان فيها مصرع الحسين وعبد الله بن الزبير على يد ولاة بنى أمية ـ وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفى قاتل العلماء ـ وشاهد أبواب الدنيا وقد فتحت على المسلمين ، فانتشر الفساد والطمع ،وكثرت الرغبات، ولقد رُوى عنه أنه قال فى أخريات

حياته: ما أجدنى آسى على شيء فاتنى فى الدنيا إلا أنى لم أقاتل مع على بن أبى طالب الفئة الباغية» (١).

* عبقرية الإمام على مع الخوارج :

هؤلاء الذين خرجوا عليه ﷺ لما التزم بشرع الله وحكم الحكمين، وقالوا: لا حكم إلا لله. هؤلاء الذين قال فيهم النبى ﷺ :« يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » (١) ومنهم عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى الذى جاء إلى النبى ﷺ وهو يقسم الصدقات ، فقال : اعدل يا رسول الله ،فقال ﷺ : «ويلك ومن يعدل إن لم أعدل » فقال عمر ﷺ فأذن لى يا رسول الله في أن أضرب عنقه فقال له ﷺ:« دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة :٥٨] .

لقد حاورهم على كرم الله وجهه بالتى هى أحسن ، بالحجج الدامغة والمنطق الشرعى والعقلى فلم يستلينوا ولم يستجيبوا ، فلما لم يجد معهم نفعا أرسل إليهم عبد الله بن عباس ﷺ حبْر هذه الأمة الذى طالما روع الخوارج بمنطقه السديد :

سألهم ابن عباس : ماذا تنقمون من على . . .؟؟

قالوا : ننقم منه ثلاثا :

أولهن :أنه حكم الرجال فى دين الله ،والله يقول : ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّه ﴾ [يوسف: ٤٠]

والثانية: أنه قاتل ثم لم يأخذ من مقاتليه سبيا ولا غنائم ،فلئن كانوا كفارا فقد أحلت له أموالهم ،وإن كانوا مؤمنين فقد حرمت عليه دماؤهم .

الثالثة :رضى بكتاب الله عند التحكيم أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين استجابة لأعدائه فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين.

---

(١) أخرجه البخارى .

وأخذ ابن عباس يفند أهواءهم فقال:

أما قولكم: إنه حكم الرجال فى دين الله فأى بأس . . . ؟ إن الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥] .

فنبئونى بالله أتحكيم الرجال فى حقن دماء المسلمين أحق وأولى أم تحكيمهم فى أرنب ثمنها ربع درهم ؟

وتلعثم زعماء الخوارج تحت وطأة هذا المنطق الحاسم ،واستأنف حبر الأمة حديثه.

وأما قولكم: إنه قاتل فلم يسب ولم يغنم فهل كنتم تريدون أن يأخذ عائشة زوجة رسول الله وأمّ المؤمنين سبيا ،ويأخذ أسلابها غنائم ؟؟ وهنا كست وجوههم صفرة الخجل ثم انتقل ابن عباس إلى الثالثة : وأما قولكم إنه رضى أن يخلع عن نفسه صفة أمير المؤمنين حتى يتم التحكيم فاسمعوا ما فعله رسول الله يوم الحديبية إذ راح يملى الكتاب الذى يقوم بينه وبين قريش ،فقال للكاتب : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال مبعوث قريش :«والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك فاكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فقال لهم رسول الله ﷺ : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتم » ثم قال لكاتب الصحيفة : « اكتب ما يشاؤون : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ».

واستمر الحوار بين ابن عباس والخوارج على هذا النسق الباهر المعجز ،ولما كاد ينتهى حتى نهض الكثير من المغرر بهم منهم معلنين اقتناعهم ، وخروجهم من خصومة أمير المؤمنين .

ولما يئس الإمام من البقية منهم رفع فى الساحة راية ضم إليها ألفى مقاتل ونادى :« من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن » ثم قال لأصحابه :« لا تبدؤوهم بالقتال حتى يبدؤوكم وسيفعلون » . . . فصاح الخوارج صيحتهم :« لا حكم إلا لله ولو كره المشركون » وهجموا هجمة رجل واحد ،وتلاقاهم على وأصحابه فما هى إلا ساعة حتى نصره الله عليهم.

هؤلاء هم الخوارج الذين طلبوا التوبة من الإمام ولم يطلبوها من معاوية وحاربوا عليا ولم يحاربوا معاوية بل أعانوه غير عامدين . . . حتى علا نجمه بين قومه ليكون أول ملك فى الإسلام .

*** عبقرية الإمام على مع ناقديه :**

هناك فكرة ترد على الخاطر أمام هذه المعضلات التى واجهها الإمام وهى : طريق السلامة وطلب الحياد واعتزال الأمر الواقع . ولكنها خطة سلبية لا تليق بعلم مفرد كعلى بن أبى طالب وهو المرشح الوحيد والشرعى للخلافة وقد بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ،وهو من أهل الشورى الستة الذين اختارهم عمر للخلافة وقال فى الأخير :«ما أظن ألا يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فإن ولى عثمان فرجل فيه لين،وإن ولى على ففيه دعابة وأحرى به أن يحملهم على الطريق» (١) ، فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلى بن أبى طالب يترك الخلافة الراشدة تضيع فى مهب الرياح ،فى يد من هب ودب . . . إنها لعمرى الخيانة العظمى . . . لا يتركها وهو كما قال الشاعر :

كالشمس فى الأفق الأعلى أبو حسن وفى معاوية فى الأرض قنديل

فالثوار لن يعفوه منها وإن أعفوه لن يتركه أصحاب السلطان وأصحاب الدنيا وطلابها لمعرفتهم زهده وصلابته فى إحقاق الحق ،وإنصاف المظلوم،ولاعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم ،وأنه ما عاش فهو علم مرفوع منصوب يلجأ إليه كل مظلوم وشاك . . . إن طلاب الدنيا لن يتركوه يعيش ،ولن يهدأ لهم بال حتى يوسد فى التراب دفينا،وصدق من قال:

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم

فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

ونحن نعلم أن دعاة الإصلاح لا يعمرون طويلا فقد قيل: إن الحسن بن على مات مسموما فى عهد معاوية خوفا من أن يجتمع الناس حوله،وقد مات عمر بن

(١) عبقرية الإمام على ص٣١ .

عبد العزيز مسموما وكذلك عبد الله بن خالد بن الوليد، وما أعظم الفرق بين الإمام على وهؤلاء عند طلاب الدنيا والتواقين إلى الملك . . . وصدق من قال: بنو أمية كان الملك غايتهم فأدركوه بدعوى ثأر عثمان.

*** الإمام على مع ابنه الحسن :**

لقد عتب الحسن على أبيه أمورا ثلاثة ظن أنه فيها مخطئ فقال له: لقد أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها .

لقد أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمرا دونك فأبيت .

ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان (يعنى طلحة والزبير) ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحا . . فإن كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله ، وأخذ الأب الكريم يفند هذه الأمور فقال:

« أى بنى أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به .

وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار، فإن الأمر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الأمر .

وأما قولك حين خرج طلحة والزبير ، فإن ذلك كان وهنا على أهل الإسلام.

وأما قولك : اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى ؟ . . . ومن تريدنى ؟ أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها . . . وإذا أنا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعنينى ، فمن ينظر فيه ؟ فكُفّ عنك أى بنىّ » (١).

لقد أشار عليه عبد الله بن عباس بأن يقر معاوية على ولاية الشام لأنه أشد خطرا عليه، وربما أشير عليه بضرب أعناق المشاغبين ودعاة الفتنة والبلبلة من جنده كالأشعث بن قيس أو بأن يولى طلحة البصرة والزبير على اليمن ، وأن لا يشدد الحساب على الولاة وغير ذلك .

(١) عبقرية الإمام على ص١٥٥ .

فلو رضخ الإمام لهذه المطالب ماذا عساه أن يكون ؟

إنه سيصبح ملكا دنيويا بدل أن يكون خليفة راشدا ،وهذا ما رفضه الإمام على كرم الله وجهه ، لقد خير بين الدنيا والملك فيها وبين الدين والخلافة الراشدة فخير ما يحبه الله ورسوله . . . فالسياسة التى نهجها الإمام ﷺ هى السياسة الراشدة ولم يكن له عنها محيد .

* خلاصة القول :

لعل أبلغ خلاصة أختم بها حديثى عن عبقرية الإمام أن الله تعالى خير رسوله ﷺ بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ،ورسول الله ﷺ خير أزواجه بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله والدار الآخرة فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة وكانت فاطمة الزهراء ﷺ أول أهله ﷺ لحوقا به إلى الرفيق الأعلى . . . وأن الرسول ﷺ كان يقول لأزواجه :« أسرعكن لحوقا بى أطولكن يدا » فكانت زينب بنت جحش ﷺ هى التى حظيت بهذه الحظوة العالية لأنها كانت تدعى « أم المساكين » لكثرة إحسانها .

والإمام على إنما هو بضعة من النبى ﷺ لا حظّ له فى الدنيا ولا مع الملك فيها وإنما حظه الآخرة والخلد فيها .

عن يحيى بن إسماعيل عن الشعبى أن سالما مولى عبد الله بن عمر قال: قيل لعبد الله بن عمر : « إن الحسين توجه إلى العراق . . . فلحقه على ثلاث مراحل من المدينة ـ وكان غائبا عند خروجه ـ فقال : أين تريد ؟ فقال: أريد العراق ، وأخرج إليه كتب القوم ثم قال: «هذه بيعتهم وكتبهم »فناشده الله أن يرجع فأبى .

فقال عبد الله بن عمر : « أحدثك بحديث ما حدثت به أحدا من قبلك : إن جبريل أتى النبى ﷺ يخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ، وإنكم بضعة منه، فوالله لا يليها أحد من أهل بيته أبدا، وما صرفها الله عنكم إلا لما هو خير لكم فارجع فأنت تعرف غدر أهل العراق وما كان يلقى أبوك منهم ، فأبى فاعتنقه وقال: أستودعك الله من قتيل » [1] .

(١) العقد الفريد ٥/١٠١ .

ريحانه رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء

مقدمة :

حسب المرأة فضلا ومكانة فى الإسلام أن القرآن الكريم أثبت لها عبقريتها فى جميع الميادين ، فقد أثبت للمرأة فراستها فى قوله تعالى: ﴿ **قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ** ﴾[القصص:٢٦] ،وأثبت لها حسن الحيلة عندما قالت أخت سيدنا موسى ﷺ لآل فرعون : ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ** ﴾[القصص:١٢] ،وأثبت لها بُعد نظرها حيث يقول عن ملكة سبأ : ﴿**وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ** ﴾[النمل :٣٥]، وسجل لها دقتها فى إدارة دفة الملك إذ تقول ملكة سبأ لمستشاريها : ﴿ **أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ** ﴾[النمل:٣٢] ،وأثبت لها دقة رأيها وسداد فكرتها فقد أمر رسول الله ﷺ الصحابة بعد صلح الحديبية أن ينحروا ويحلقوا رؤوسهم فلم يفعلوا ، فغضب رسول الله ﷺ ودخل على أم سلمة زوجته فقالت له: لو نحرت لنحروا، فنحر رسول الله ﷺ ونحروا بنحره ،وحلق رأسه فحلقوا (١).

وأثبت لها رسول الله ﷺ حقها فى التعلم :جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك فاجعل لنا من نفسك يوما نأتيك فيه تعلمنا ما لله ، فقال : « اجتمعن يوم كذا » (٢) فاجتمعن فأتاهن رسول الله ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

وهكذا كانت المرأة المسلمة أول طالبة للعلم وكان رسول الله ﷺ أول أستاذ لها بعد القرآن الكريم فى الوقت الذى كانت فيه المرأة الأوربية رمزا للشر ورجْزاً من عمل الشيطان وحسب النساء عبقرية فى الإسلام أن أول شهيدة فى سبيل الله كانت امرأة هى سمية أم عمار بن ياسر وأن أول من أسلم وآمن بالله ورسول الله

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ١٨٧ .
(٢) مسلم ٣٨ .

كانت هى خديجة رضي الله عنها وقد خففت عنه كثيرا وأعانته برأيها وعطفها ،وبذله لمالها له لدرجة أنه لم ينس ذكرها طول حياته ،وكان يقول :« والله لقد آمنت بى إذ كذبنى الناس ، وآوتنى إذ طردنى الناس ، ورزقت منها الولد . . » وكان عمر بن الخطاب يستشير الناس وكان يقدم الشفاء بنت عبد الله القرشية العدوية فى الرأى والرضى . وحسب المرأة عبقرية أن لها من القدر والعطف والاحترام عند رسول الله ﷺ مثلما للرجل . . . فكما كان مع أفاضل المسلمين وكبار الصحابة كان يفعل مع فضليات المسلمات ،وكبار الصحابيات ،فقد كفن فاطمة بنت أسد فى قميصه، واضطجع فى قبرها وجزاها خيرا فقالوا: ما نراك صنعت بأحد ما صنعت بهذه قال: « إنه لم يكن بعد أبى طالب أبرّ بى منها إنما ألبستُها قميصى لتُكسى من حُلل الجنة ،واضطجع فى قبرها ليُهوّن عليها عذاب القبر »(١) .

وقد حدد الله سبحانه وضع النساء من الرجال فى شكل لا يدع مجالا للشك فقال جل شأنه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة: ٢٢٨]. إنها درجة القوامة ،ولا بد للبيت من مسؤول كما لا بد للدولة من رئيس .

كما كفل الإسلام للمرأة كل حق كفله للرجل فى قوله النبى ﷺ: « النساء شقائق الرجال » (٢) .

لقد وصلت المرأة بعبقريتها فى الإسلام إلى أرقى مستوى رفيع فى احترام حرية الرأى وحرية الاختيار ، فلا يرغمها أحد على ما لا تريد فى حدود الشرع وأحكامه بل يبيح لها ما يبيح للرجل ضمانا لراحتها وسعادتها . . . فصارت موفورة الكرامة ،وافرة الحقوق، مستكملة كل الحريات . . .وحتى لما أشار القرآن إلى تهذيبها عند العصيان وسوء الخلق جعل الضرب مكان الطلاق ،وجعله آخر العلاج . . بل إن رسول الله نهى عن ضرب النساء فقيل : يا رسول الله إنهن قد فسدن . فقال:« اضربوهن ولا يضرب إلا شراركم » .

وبهذا الدين ظهرت عبقريتها فى مواطن الإيمان ذات الأعباء والتكاليف الثقال

(١) أسد الغابة ٧/ ٢١٧ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : حديث صحيح .

فشهدت الغـزوات مع رسول الله ﷺ وأولهن نساؤه عليهن السلام . . . وها هى نسيبة أم عمـارة الأنصارية يوم أحـد تركت سقاء الجـرحى وأخذت تقاتل بـالسيف وترمى بالنبل دفاعا عن رسول الله ﷺ حـتى أصابها فى عنقها فجرحت جرحـا عميقا ، وكان معها زوجهـا وابناها فقال لهم الرسول ﷺ :« بارك الله عليكم أهل بيت » فقالت نـسيبة : ادع الله أن نرافـقك فى الجنة فقال :« اللهم اجعلهم رفـقائى فى الجنة » فقالت رضي الله عنها : ما أبالى ما أصابنى من أمـر الدنيا وقد قال رسول الله ﷺ فى حقها :« ما التفت يمينا وشمـالا يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى »وقد جرحت يومئذ اثنى عشر جرحا بين طعنة برمح وضربة بسيف (١) .

وقد شهدت فـريعة بنت مالك بن سنان بيعة الرضوان ،وقد كـانت بيعة عدم فرار عند اللقاء (٢) وكانت ليلـى الغفارية تخـرج مع رسول الله ﷺ فى مـغازيه تداوي الجرحى وتقـوم على المرضى (٣).ولدينا من هذه النماذج زنيـرة جارية بنى مؤمن ،والمهدية وابنتها وكثيرات مما لا يحصيهن العد (٤).

وكانت أم سليم يوم حنين فـى جملة من ثبت ممسكة بعيـرا لأبى طلحة وفى يدها خنجـر . . .وقد قتلت أسـماء بنت يزيد بن السكن يوم اليـرموك تسـعة من الروم بعمود فسطاطها .

وكانت أميمة بنت قيس بن أبى السلط الغفارية جاءت إلى رسول الله ﷺ فى نسوة من غفار فقلن : إننا نريد أن نـخرج معك فى وجهك هذا فنداوى الجرحى، ونعين المسلمين بما استطعنا فقال رسول الله ﷺ : « على بركة الله » (٥).

وقتلت أم حكيم بنت الـزبير بن عبد المطـلب يوم مرج الصفر سـبعة بعـمود الفسطاط التى بات خالد بن سعيد معرسا بها (٦).

وكمـا ظهرت عـبقـرية المرأة فى مواقف الإيمان ظهـرت عبـقريتهـا فى العلم

(١) السيرة النبوية للسباعى ص ٨٥ .
(٢) أسد الغابة ٧/ ٢٣٥ .
(٣) المرجع السابق ٧/ ٢٥٩ .
(٤) المرجع السابق ٧/ ٣٦٥ .
(٥) المرجع السابق ٤/ ٤٢٥ .
(٦) الإصابة ٤/ ٤٢٥ .

والتعلم، فقد كان كبار الصحابة يسألون السيدة عائشة رضي الله عنها عن الفرائض ، وكانت من أفقه الناس وأحسنهم رأيا . قال عروة بن الزبير : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة (١).

وكان بعض الصحابة يقرؤون على أم سعد بنت الربيع فتصحح لهم أغلاطهم وكانت زينب بنت أم سلمة أفقه امرأة فى المدينة فى زمانها(٢).

وكانت علية بنت حسان مولاة بنى شيبان امرأة نبيلة عاقلة ،وكان صالح المرى وغيره من وجوه البصرة وفقهائها يدخلون عليها فتحادثهم وتسائلهم (٣).

وفى دور النساء كانت تعقد أخطر المؤتمرات . . ففى بيت فاطمة بنت قيس بن خالد اجتمع أصحاب الشورى لما قتل عمر بن الخطاب ،وقد اشتغلت المرأة بالتعليم والوعظ والإرشاد فكم من صحابة وأبنائهم والتابعين والأئمة العظام تتلمذوا على يد النساء الفقيهات الفاضلات وقد تصدرت أم الخير الحجازية حلقات وعظ وإرشاد بجامع عمرو بن العاص فى القرن الرابع الهجرى .

وتجلت عبقرية المرأة المسلمة فى إعانة زوجها على قوت اليوم ،وكانت أم المؤمنين زينب بنت جحش امرأة صانعة اليد ،فقد كانت تصبغ وتخرز ثم تتصدق فى سبيل الله (٤)،وكانت امرأة عبد الله بن مسعود سيدة تتكسب وتنفق على ولدها وزوجها وولى عمر بن الخطاب امرأة للإشراف على جانب من السوق ، ويبيح بعض الفقهاء تولية المرأة القضاء(٥) . . وكانت سودة زوج النبى ﷺ تعمل الأديم الطائفى (٦).

ووصلت المرأة بعبقريتها فى الإسلام فتدخلت للصلح بين الرجال بل بين الطائفتين من المسلمين إذا اشتدت الخصومة ،فقد خرجت السيدة عائشة رضي الله عنها فى وقعة الجمل لعل الرجال يستحيون منها إذا وقعت إليهم .

وبلغت العبقرية أوجها فى تخصص بعض النسوة فى تجميل النساء لأزواجهن

(١) أسد الغابة ٧/ ١٩١ .
(٢) البداية ١/ ٢٩٤ .
(٣) مسلم ١/ ٥٤ .
(٤) الطبقات ٨/ ٧٧ .
(٥) شهيد المحراب ص٩٥ .
(٦)أسد الغابة ٧/ ٨٧ .

وتزينهن لحلائلهن في عهد رسول الله ﷺ لكى لا يخرجن إلى الطرقات متبرجات كاسيات عاريات مائلات مميلات . . . قالت أم رعلة القشيرية :« يا رسول الله إنى امرأة مقينة أقين النساء وأزينهن لأزواجهن فهل هو حوب فأثبط عنه؟أى فى تزيين النساء لأزواجهن ذنب فأتركه ؟فقال لها :« يا أم رعلة قينيهن وزينيهن إذا كسدن » (١).

وبهذه الأمثلة والنماذج يتضح لك ـ أخى القارئ ـ أن الإسلام لم يجعل المرأة كمًّا مهملا داخل البيت ،ولم يجعلها آلة تتحرك بإشارة من الزوج ،متجهمة لا تبتسم ولا تضحك إلا بإذنه . . ولم يجعلها آلة صماء يضغط الرجل على زرها فتنطلق إلى ما يراد بها ـ إلى عالم المطبخ . . فمن حق المرأة المسلمة ألا تغسل ولا تطبخ ولا تخبز ولا ما إلى ذلك إلا برضاها . . . فمن حق المرأة شرعا ألا تبقى قابعة فى قعر دارها لا تغادرها ، فليست عضوا مشلولا فى المجتمع الإسلامى لا تعرف إلا الجدران الأربعة والأبواب والنوافذ المقفلة تستقبل زوجها إذا حضر وتودعه إذا خرج . . . بل كانت وما تزال وسوف تبقى بإذن الله ذات شخصية قوية وروح مرحة ، تبعث الراحة إلى صدر الزوج والولد والقريب والبعيد ، تسمع وتقدر وتستفسر وتناقش دون لوم أو مؤاخذة . . .تبنى الأجيال وتعيد إليهم البسمة التى فقدوها، وتساهم فى إعلاء الدين الذى منحها الحرية الحقة والمستوى العزيز.

إذا كان العبقرى من الرجال هو الذى يملك حظا وافرا من الملكة الروحية إلى جانب ما عنده من الملكة الذهنية والملكة الخلقية . .فإن العبقرية من النساء هى تلك التى تملك حظا وافرا من الجمال الخلقى والخلقى إلى جانب ما عندها من قوة الدين وسداد الرأى .

وللجمال سمات ظاهرة وباطنة حددها علماء الجمال فيما يلى:

ـ السمات الظاهرة وعددها أربعة وهى:

١ـ السلامة من العيوب .

(١) الإصابة ٤/ ٤٣١ .

٢ـ القصد والمراد به نفى « العبث » عن الموضوع الجمالى.

٣ـ التناسق .

٤ـ التنظيم .

ـ السمات الباطنة حددها بعضهم فى القيم الثلاثة وهى: الخير والحق والجمال باعتبارها حقائق فى هذا الوجود:

فالخير خير ولكنه إذا زين بالجمال كان أقرب إلى الكمال.

والحق حق ولكنه إذا زين بالجمال كان أدق فى تحقيق العدل .

والأمر بالمعروف خير ،ولكنه إذا كان بأسلوب مهذب بعيدا عن الفظاظة والغلظة كان أقرب إلى تحقيق الجدوى . . . لأنه فى هذه الحالة أجمل (١).

والصدقة على الفقير خير ولكنها إذا كانت مصحوبة بالكلمة الطيبة كانت خيرا وجمالا . . . وهكذا .

والناظر إلى السيدة فاطمة الزهراء يرى ـ وبدون مبالغة ـ أن الجمال بنوعيه الظاهرى والباطنى قد ارتسما فى شخصيتها .

روى ابن حبان عن عائشة قالت :« ما رأيت أحدا أشبه كلاما وحديثا برسول الله ﷺ من فاطمة ،وكانت إذا دخلت قام إليها ورحب بها ،وأخذ بيدها وأجلسها فى مجلسه »، وفى رواية عن عائشة حسنها الترمذى: « ما رأيت أحدا أشبه سمتا ولا هديا ولا حديثا برسول الله ﷺ من فاطمة وفى قيامها وقعودها ».

وروى البخارى أن النبى ﷺ قال:« إن فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » فمن أحب أن يعرف الجمال الخلقى والخُلقى لفاطمة رضي الله عنها فلينظر إلى رسول الله ﷺ : « أما الجمال الخِلقى الجسدى فإن أول ما يقع بصر الإنسان عليه يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له وهذا ما انعقد عليه إجماع من شاهدوه عليه الصلاة والسلام :

(١) الظاهرة الجمالية فى الإسلام ص١٢١ .

عن جابر بن سمرة قال: رأيت النبى فى ليلة أضيحان (أى مقمرة مسفرة) فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو كان أحسن فى عينى من القمر . [أخرجه الدرامى والبيهقى] .

وأخرج الترمذى والبيهقى عن أبى هريرة قال: « ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله كأن الشمس تجرى فى وجهه، وما رأيت أحدا أسرع فى مشيه منه كأن الأرض تطوى له ، إنا لنجهد وإنه غير مكترث .

وأخرج الشيخان عن البراء قال: كان رسول الله أحسن الناس وجها ، وأحسنهم خلقا ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير .

وأخرج مسلم عن أبى الطفيل أنه قيل له صف لنا رسول الله قال: كان أبيض مليح الوجه » . وأخرج الدارمى والبيهقى والطبرانى وأبو نعيم عن أبى عبيدة قال: قلت للربيع بنت معوذ صفى لى رسول الله. قالت : «لو رأيته قلت : الشمس طالعة » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال: كان رسول الله ضخم القدمين حسن الوجه لم أرَ بعده مثله .

وأخرج الدارمى عن ابن عمر قال : « ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوأ من رسول الله » .

وأخرج أحمد والبيهقى عن محرش الكعبى قال:« اعتمر النبى من الجعرانة ليلا فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة».

ومن شعر عمه أبى طالب فيه :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

وكان ﷺ إذا مس أحدًا أحس بطمأنينة عجيبة وروح عجيب .

أخرج أحمد عن سعد بن أبى وقاص قال:« اشتكيت بمكة فدخل على رسول الله يعودنى فوضع يده على جبهتى فمسح وجهى وصدرى وبطنى فما زلت يخيل

إلى أنى أجد برد يده على كبدى حتى الساعة .

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة قال: مسح رسول الله خدى فوجدت ليده برداً وريحانا كأنما أخرجها من جولة عطار .

وأخرج الشيخان عن أنس قال: ما مسست حريرا ولا ديباجا ألين من كف رسول الله ،ولا شممت مسكا ولا عنبرا أطيب من ريح رسول الله ﷺ .

وكان منظره يوحى لمن يراه بأنه أمام نبى .

ويقول عبد الله بن رواحة فى وصفه :

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ينبيك بالخبر (١)

هذه بعض آثار مما ورد فى وصف تكوينه الجسمى وكانت ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها أشبه سمتا وجمالا به ﷺ .

أما الجمال الأخلاقى فيكفى ما قاله ربنا سبحانه وتعالى فى رسوله ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكذلك كانت فاطمة رضي الله عنها . . .إذن فقد اجتمع جمال الظاهر والباطن فيها . . وتلك صورة الكمال البشرى .

روى البخارى ومسلم والترمذى عن النبى ﷺ أنه قال :« إنه كمل من الرجال كثير ،ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران ،وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد .

وصح أن النبى ﷺ جلل فاطمة وزوجها على وأبناءها بكساء وقال: « اللهم هؤلاء أهل بيتى ،اللهم فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا »(٢).

*** زهد السيدة فاطمة وعفافها :**

روى عمران بن حصين رضي الله عنه أنه قال : كانت لى من رسول الله منزلة وجاه فقال:«يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها ،فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ» . فقلت: نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ،قال : فقام وقمت معه

(١) الرسول لسعيد حوى ص٢٣ وما بعدها . (٢) رواه مسلم.

حتى وقفت بباب منزل فاطمة فقرع الباب، وقال : « السلام عليكم أأدخل؟» فقالت: ادخل يا رسول الله ، قال:« أنا ومن معى ؟» قالت: ومن معك يا رسول الله ؟ قال: «عمران بن حصين ».

فقالت :والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة .

فقال : « اصنعى بها هكذا وهكذا ـ وأشار بيده» .

فقالت:هذا جسمى فقد واريته فكيف برأسى ؟

فألقى ﷺ ملاءة كانت عليه خلقة فقال :« شُدى بها على رأسك» .

ثم أذنت له فدخل عليه السلام ، فقال :« السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت ؟»

قالت : أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أجهدنى الجوع .

فبكى رسول الله ﷺ وقال:« لا تجزعى يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاثة أيام وإنى لأكرم على الله منك ،ولو سألت ربى لأطعمنى ،ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا » .

ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها : « أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة » فقالت:يا رسول الله :فأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران ؟

فقال:« آسية سيدة نساء عالمها ،ومريم سيدة نساء عالمها ،وخديجة سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنْكن فى بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب».

ثم قال لها :« أما ترضين أنى زوجتك أقدم أمتى سلما، وأكثرهم علما ، وأعظمهم حلما . اقنعى بابن عمك فوالله لقد زوجتك ـ سيدا فى الدنيا وسيدا فى الآخرة» (١) .

* فاطمة الزهراء هى أول من جعل لها النعش (٢)فى الإسلام ، عملته لها

(١) إحياء علوم الدين .

(٢) النعش هو سرير الميت .

أسماء بنت عميس الخثعمية ،وكانت قد رأته يصنع فى بلاد الحبشة [١]، وفى رواية أخرى قالت أسماء بنت عميس لعمر بن الخطاب : « يا أمير المؤمنين ألا أريك شيئا رأيت الحبشة تصنعه لنسائهم؟» فصنعت النعش، فلما نظر إليه عمر قال: « ما أحسن هذا ،ما أستر هذا ، نعم خباء الظعينة» .ومهما يكن فإن فاطمة الزهراء ﵂ هى صاحبة المبادرة لأنها استقبحت أن يطرح على المرأة الثوب فيصفها. . .قال ابن عبد البر :هى أول من غطى نعشها فى الإسلام على تلك الصفة. .ألم نقل: إن العبقرى منفرد فى صنيعه فلا يقدر أحد أن يصنع مثل صنيعه؟

ومن قبيل هذا التفرد فى العفاف والطهر والنقاء ضرب رسول الله ﷺ المثل بابنته فقال:« والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » :« ولو » هنا حرف امتناع لامتناع ففاطمة لم تسرق ،ومحمد لم يقطع يدها ،وقد ضرب الله المثل برسول الله ﷺ فقال:﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ﴾ [آل عمران:١٥٩] فرسول الله لم ولن يكون فظا،والصحابة لم ينفضوا من حوله . . . فما أعظم الشبه بين محمد ﷺ وبين ريحانته فاطمة عليها السلام.

وبما أننا بصدد ضرب المثل الرائع فى الزهد والعفاف ،فقد روى أحمد بسند جيد عن على بن أبى طالب أنه قال لفاطمة قد جاء أباك خدم كثير فاذهبى فاستخدميه ثم أتيا إليه جميعا فقالت فاطمة : يا رسول الله لقد طحنت حتى كلت يدى ، وقد جاءك الله بسعة فأخدِمنا » فقال:« والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع » ثم قال:« ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟» فقالت : بلى ، قال :« كلمات علمنيهن جبريل إذا أنتما أتيتما إلى فراشكما فاقرآ آية الكرسى،وسبحا ثلاثا وثلاثين ،واحمدا ثلاثا وثلاثين ،وكبرا أربعا وثلاثين » [٢].

إن الرسول ﷺ أحرص الناس على توفير الراحة الزوجية فى أعمال المنزل ، فهو المساعد أهله فى تنظيف البيت وفى العجن وترقيع الثياب ،وقد كان على بن أبى طالب ﵁ يقسم عمل البيت بين أمه فاطمة بنت أسد وزوجته فاطمة الزهراء فيقول لأمه: « اكفى فاطمة بنت رسول الله سقاية الماء والذهاب فى الحاجة ،

(١) معجم الأوائل ٠ص٥٢ . (٢) إسعاف الراغبين ص١٨٩ .

وتكفيك فى الداخل الطحين والعجين» (١) فلما توفيت فاطمة بنت أسد شق على فاطمة الزهراء أمر البيت كله إلا أن رسول الله ﷺ لم يجبها إلى طلبها لأن فى المسلمين من هو أشد حاجة واضطرارا منها . . .وليعطى المثل الأعلى من ابنته فى الزهد والعفاف والكفاف.

فلا عجب إذن أن تكون من هذه شيمها صاحبة المعجزة الباهرة ،والعبقرية الخالدة : ذكر ابن كثير فى تفسيره عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق عليه ذلك ، فطاف فى منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: « يا بنيتى هل عندك شيئا آكله فإنى جائع ؟» قالت: لا والله ـ بأبى أنت وأمى ـ فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعته فى جفنة لها وقالت :« والله لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسى ومن عندى » . . . وكانوا محتاجين جميعا إلى شبعة طعام. . فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت : بأبى أنت وأمى قد أتى الله بشىء فخبأته لك . . قال: «هلم يا بنية » . . . قالت : فأتيته بالجفنة فكشفت عنها فإذا هى مملوءة خبزا ولحما . . . فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله فحمدت الله وصليت على نبيه وقدمته إلى رسول الله ﷺ فلما رآه حمدالله وقال:« من أين لك هذا يا بنية؟ » قالت :يا أبت هو من عند الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران :٣٧] فحمد الله وقال : « الحمد لله الذى جعلك يا بنية شبيهة بسيدة بنى إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله شيئا وسئلت عنه قالت : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . فبعث رسول الله إلى على بن أبى طالب ثم أكل رسول الله وأكل على والحسن والحسين وجميع أزواج النبى ﷺ وأهل بيته حتى شبعوا جميعا . . .قالت فاطمة: وبقيت الجفنة كما هى قالت : فأوسعت ببقيتها على جميع الجيران ، وجعل الله فيها بركة وخيرا كثيرا » (٢).

إن فاطمة ـ وهى أصغر بنات النبى ﷺ شاء لها الله تعالى أن تحفظ رسول

(١) أسد الغابة ٧ / ٢١٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٣٤٠ .

الله ﷺ فى نسبه وآل بيتـه ، فقد انقطع نسبه عليه السلام إلا من فاطمة ،وكانت أحب بناته إلى قلبه بل أحب النسـاء جميعـا . . . دخل بها على رضي الله عنه بعد غـزوة أحد فـولدت له الحسـن والحسين ومـحـسن وأم كلثوم وزينـب . . .وروت عن أبيهـا أحاديث. . .وبلغ مـن حبه لهـا أنه ﷺ وهب لها فـدكا [١]وشهد عنـده عمر بن الخطاب وعبد الرحـمن بن عوف أن رسول الله ﷺ كان يقسمهـا ،فقال أبو بكر: «صدقوا وصدقت وصدقت فاطمة كـان مالك لأبيك وكان يأخذ منها قوته ويقسم الباقى ، فمـا تصنعين به يا فاطمة ؟ قـالت : « صنيع أبى» قال: « فلك على أن أصنع فيـها صنيع أبيك ﷺ » . . فكان يدفع إلـيهم ما يكفـيهم ويقـسم الباقى ، وكذلك فعل عمـر وعثمان وعلى. فلما ولى معاويـة الخلافة أقطع ثلث فدك إلى مروان بن الحكم ،وثلثـها إلى عمرو بن عثـمان وثلثها إلى يزيد بـن معاوية وذلك بعد موت الإمـام الحسن بن على ، فتداولوها حتى ولى مروان بن الحكم فـوهبها لعبد العزيز بن مروان ثم صارت لابنه عمر بن عبد العزيز. فلما ولى عمر بن عبد العزيز رد فدكا لأهل البيت ،فكانت أول مظلمة ردها عليهم [٢].

*** فاطمة الزهراء وارثة سر النبى ﷺ :**

لما مـرض النبى ﷺ قال لهـا :« إنى مـقبـوض فى مرضى هذا » فـبكت ، وأخبرها أنهـا أول أهله لحوقا به وأنها سـيدة نساء هذه الأمة فضـحكت ،وكتمت ذلك ، فلما توفى النبى ﷺ سألتها عائشة عما قيل لها . فقالت: ما كنت لأفشى سر رسول الله ﷺ . . . فلما دفن عليه السلام سألتها فأخبرتها الخبر [٣] حب النبى ﷺ جعله لم يرض لامرأة أخرى أن تشارك معـها فراشها ،ولقد غضب عليه السلام لما بلغه أن أبا الحسن يود الزواج بامرأة ثانية،فقال:« إنما فـاطمة بضعة منى يُريبنى ما رابها ويؤذينى مـا أذاها » [٤] فتـــرك على الخطبة رعـاية لها ،فـما تزوج عليـها ولا تسرى، فلمـا توفـيت تـزوج وتسرى(يعنى تمتع بما أحل الله له مـن الإمـــاء

(١) واحة بالحجاز.

(٢) الأوائل : أبو هلال العسكرى ١/ ٣٧٥ .

(٣) مسند أحمد والبخارى مع خلاف بسيط.

(٤) رفض الرسول ﷺ التعدد لعلى وارد فى صحيح البخارى في أكثر من حديث .

وما ملكت يمينه).

*** أبو بكر الصديق يسترضى فاطمة الزهراء:**

لما مرضت فاطمة الزهراء رضي الله عنها أتى أبو بكر الصديق رضي الله عنه يعودها فقال لها على : هذا أبو بكر بالباب فإن شئت أن تأذنى له ؟ فقالت : وذلك أحبّ إليك؟ قال: نعم فدخل عليها يترضّاها، وقال : والله ما تركت الدار والمال إلا ابتغاء مرضاة الله ورسوله ومرضاتكن أهل البيت ثم ترضاها حتى رضيت .

وبهذ الخُلق النبيل تكون فاطمة رضي الله عنها قد أحيت سنة أبيها فى العلاقة بين الرجل والمرأة . بحيث يجوز للمرأة المسلمة الصالحة أن تزورها الجماعة من الرّجال ويسمعوا كلامها (١).

ولا يضير المرأة العفيفة أن تستضيف زوارها الأفاضل ،بل إنه لتستحب الضيافة من النساء بزوارهن من فضلاء الرجال(٢).

بل إن النساء كن يقمن على الرجال فى العُرس ، وتخدمهم بنفسها كما كانت تفعل أم أسيد الأنصارية حين دعا زوجها رسول الله ﷺ وصحابته للطعام فقربته إليهم(٣) فكانت امرأته يومئذ خادمهم وهى العروس [رواه البخارى ومسلم].

وكان رسول الله ﷺ يعود المرضى من النساء فقد روى أنه دخل على امرأة من الأنصار يعودها فقال: « كيف تجدينك » قالت: بخير وقد برحت بى أم ملدم (كنية عن الحمى) ،فقال: « اصبرى فإنها تذهب من خبث الإنسان كما تذهب النار وسخ الحديد» (٤) .ولا خلاف أن المرأة المسلمة تخرج فيما تحتاج إليه من أمورها الجائزة ولكن على حالة لا تمتد إليها فيها الأعين (٥).

وقد أجاز الإسلام للمرأة المسلمة أن تسافر وحدها بلا زوج ولا محرم ولا غيرهما إذا كان سفر ضرورة (٦).

فالإسلام لم يقيد حرية المرأة فى السفر والانتقال ما دام ذلك بعيدا عن كل ما

(١) رواه مسلم ٥/ ٣١٩ .
(٢) رواه مسلم ٣/ ٦٩٨ .
(٣) أسد الغابة ٧/ ٣٠٠ .
(٤) أسد الغابة ٧/ ٢١٩ .
(٥) رواه مسلم ٥/ ١٥ .
(٦) مسلم ٤/ ١٨٢ .

يعرضها لما يمس بعورة [١] . . . وفى دور النساء ،وعلى مشهد منهن عقدت مؤتمرات ومحاضرات ولقاءات كان لها أثرها العظيم فى تاريخ الإسلام .

فرضى الله عنك يا فاطمة الزهراء،يا ريحانة رسول الله ﷺ ،يا أستاذة نساء العالمين . . وسيدة نساء أهل الجنة.

*** كلمة أخيرة عن المرأة المسلمة :**

لقد ضربت المرأة المسلمة أروع النماذج والأمثال فى جميع المجالات،كانت على قدر كبير من السمو فى النفس ، والإشراق فى الروح والروعة فى العطاء المادى والمعنوى.

كانت أسماء بنت أبى بكر الصديق رضي الله عنه من أوائل من أسلم ،وقد رشحها أبوها لأخطر الأعمال خلال هجرته فى صحبة الرسول ﷺ إلى المدينة سرا. . فقد كان لها دور فيها . . .فكانت تحمل الزاد والماء للرسول ﷺ وصاحبه إذ هما فى الغار وتنقل لهما أسرار وتطورات مواقف زعماء قريش الذين كانوا يبحثون عنهما ليقتلوهما .

وجاء هؤلاء الزعماء إلى أسماء مرة بعد خروج أبيها مع النبى ﷺ وسألوها عنهما فقالت : لا أدري فلطمها أبو جهل لطمة أطارت قرطها . . . وقد سجل التاريخ موقفها الرهيب الذى لا يُعرف له مثيل فى حياة الأمهات ذلك لما دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير خلال ثورته على الأمويين فى الحجاز- أيام عبد الملك ابن مروان - بقيادة الحجّاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش كبير .

دخل عبد الله على أمه أسماء وقد انفضّ عنه أنصارُه بعد قتال مرير طويل فقال لها مستشيرا : يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة،والقوم - أى الأمويون - يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ قالت له :أنت والله يا بنى أعلم بنفسك،إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له،فقد قتل عليه أصحابك. . .وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك،وأهلكت من قتل معك.

---

(١) مسلم ٤/ ٥٣١ .

وإن قلت: كنتُ على حق ولّما وهن أصحابى ضعُفت ،فليس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين ! وكم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ،والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل ».

قال: « يا أماه أخاف إن قتلونى أن يمثلوا بى » !

قالت : « يا بنى إن الشاة لا يضرها سلخها بعد الموت » .

وخرج عبد الله فقاتل حتى قُتل فى يومه وهو يقول : « والله ما ذلّ ذو حق ولا تمالأ عليه من بأقطارها ،ووالله ما عز ذو باطل ولو طلع من جبينه القمر » .

وأمه تنظر إلى جسده ملقى على الأرض قتيلا وتبكى . . فجاءها الحجاج مُذْرِفا دموع التماسيح ، فيقول لها :يا أماه لقد أوصانى أمير المؤمنين بك خيرا فهل عندك حاجة ؟

قالت: أنا لست أمك بل أم هذا القتيل ،ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومُبير» فأما الكذاب فقد عرفناه وأما المبير فلا أراه إلا أنت.

ثم رجع الحجاج على أعقابه خائباً دون أن يظفر منها شىء .

وها هى الخنساء التى بكت أخاها صخرا فى الجاهلية أيما رثاء ،وبكته بدموع لا ترقأ وتقول :

يذكرنى طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

فلا والله ما أنساك حتى أفارق مهجتى ويشق رمسى

فيا لهفى عليه ولهف أمى أيصبح فى الضريح وفيه يمسى

لما أكرمها الله بالإسلام ،حضرت القادسية ومعها بنوها ـ أربعة رجال ـ فجمعتهم ليلة المعركة ، وقالت لهم:« يا بنِىّ إنكم أسلمتم طائعين ،وهاجرتم

مختارين، إنكم لبنو رجل واحد ،كما أنكم بنو امرأة واحدة ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم ،ولا هجنت حسبكم ،ولا غيرت نسبكم» (١) وذكرتهم بآيات الوعد بجزيل الثواب للصابرين فى مواطن القتال وقالت :« فإن أصبحتم غدا ـ إن شاء الله ـ سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ،فإذا رأيتم الحرب شمرت عن ساقها فتيمّموا وطيسها تظفروا بالخلد والكرامة فى دار الخلد والمقامة » (٢) .

فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم ،وباشروا القتال حتى قُتلوا كلهم ، فلما بلغ الخبر الخنساء قالت :« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » .

وها هى فاطمة بنت عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين وأخت الوليد وسليمان ويزيد وهشام أمراء المؤمنين ،وزوجة عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين لما خرجت من بيت أبيها إلى بيت زوجها يوم زُفّت إليه وهى مثقلة بأثمن ما تملكه امرأة على وجه الأرض من الحلى والمجوهرات .

ويقال :إن من هذه الحلى قُرطى مارية اللذين اشتهرا فى التاريخ وتغنى بهما الشعراء وكانا وحدهما يساويان كنزا .

ولما اختار الخليفة سيرة الخلفاء الراشدين خيَّر زوجته مثلما خير الرسول ﷺ أزواجه ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الأحزاب :٢٨ ، ٢٩] .

فاختارت فاطمة اختيار نساء النبى ﷺ : اختارت الله ورسوله والدار الآخرة، ورضيت أن تكون نفقة بيتها بضعة دراهم فى اليوم فكانت بذلك مغتبطة ،لأنها تذوقت لذة القناعة ،وتمتعت بحلاوة الاعتدال،بل اقترحت على زوجها ـ عمر ـ أن تترفع عن عقلية الطفولة ، فتخرج من عالم الألوان والشكليات فوضعت عن أذنيها وعنقها وشعرها ومعصميها جميع الحلى والذهب الذى لا يسمن ولا يغنى

(١ ، ٢) الاستيعاب ٤/ ١٨٢٧ .

من جوع ،ولو بيع لأشبع ثمنهُ بطون شعب برجاله ونسائه وأطفاله .

لقد اختـارت الله ورسوله والدار الآخرة فـحملت أثقال الحـلى والمجوهرات واللآلئ والدرر فبعثت بذلك كله إلى بيـت مال المسلمين .وتوفى عقب ذلك أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ،ولم يخلف لزوجته وأولاده شيئا .

فجاءها أمين بيت المال وقال لها :« إن مجوهراتك يا سيدتى لا تزال كما هى وإنى اعتبرتها أمانة لك ،وحفظتها لهذا اليوم ،وقد جئت أستأذنك فى إحضارها » فأجابته بأنها وهبتها لبيت مال المسلمين طاعة لأمير المؤمنين ثم قالت : « وما كنت لأطيعه حيـا وأعْصيه ميتا »،وأبت أن تـسترد من مالها الحلال المـوروث ما يساوى الملايين ، الذى كانت محـتاجة فيه إلى دريهمات ،وبذلك كتـب الله لها الخلود ، رحمها الله وأعلى مقامها فى جنات النعيم .

وبعد :

إن من حق المرأة المسلمة أن تحقق عبقريـتها على أرض الواقع ،ومن حقها فى الإسلام أن تكون كفؤا للرجل الكفاءة التى لا تـتنافى مع طبائع الأشياء ، فتشارك فى الصـالح العام والخاص بـالخدمة والفكـر ، وتشغل مركـز العمل الاجتـماعى والاقتصادى والسياسى .

وإن للمرأة عبقرية لو تركت وشأنها أن تصل للقيام بجلائل الأعمال .

خاتمـــة

لقد وفقنـى الله تعالى إلى تأليف كتاب « العـبقرية الإسلامـيةوطرق الوصول إليـها » وقـصـدى ـ بعد رضـا الله وثوابه ـ أن ألفت الأنظار إلى عـبـاقرة أمـتنا وحـضارتنا ،كـدليل على اسـتطاعـتنا بناء حـضارة أكـمل وأسمـى مما نحن فيـه اليوم،وأن أذكر الجيل الجـديد من أبناء أمتنا بواجبهم فى بناء حضـارة إنسانية كريمة كما بـنى آباؤهم أمثالها . . فـأمتنا تدخل الآن باب التاريخ من جديد ـ بـصحوة إسلامية مباركة ـ دخولا كريما فيـه كل تحفز وانطلاق لبناء مستقبل أفضل وأكمل ، وفى أمتنا بقايا من سجايا الآباء والأجداد، فـإذا سمعت حديث أمجادهم وآثارهم وحضارتهم وعبقريتهم هزها ذلك هزاً عنيفا ،ودفعها إلى العمل دفعا حثيثا .

فلا حاضر لأمة تجهل ماضيها ،ولا مستقبل لأمة تنكر خصائصها وفضائلها. . فإن تجاهل الماضى وإنكاره وازدراءه ـ مع ما يفيض به من خير واسع ،ونور رحيب هو شأن الحـاقدين أو الجـاهلين . . .ومن الخيـر أن نستـفيـد من كنوزنا فى بناء نهضتنا لتكون النهضة مأمونة العواقب ،واضـحة الملامح فيما تهدف إليه من كرامة وهناء عارفة بأسـباب النجاح والبقاء،مـوصولة الحلقات بأمجـاد الماضى مع أمجاد الحاضر،وأمجاد المستقبل، فيستمر الموكب ،وتنسجم الحلقة،ويكتمل البناء .

وبعد :

فالعبقرية الإسلامية ليست وقـفا على أحد وليس ما ذكرنا من عباقرة وحدهم هم الذين صنعتهم حضارتنا وشريعتنا ، وإنما ذكرناهم على سبيل المثال لا الحصر، وما أبو بكر وعمـر وعثمان وعلى إلا نماذج لمن أتى ويأتى بعـدهم من الرجال إلى يوم القيامة . . .وما فاطمـة الزهراء وأسماء إلا أسوة للائى أتين ويأتين بعدهن من النساء . . .وفى كل واحد وواحدة من هؤلاء مثل خالد على سمُوِّ النزعة الإنسانية وسُموِّ العبقرية فى حضارتنا الخالدة .

وما أكثر العباقرة ،ونماذج الكمال الإنسانى الذى لم يكن يعيش فى خيال الفلاسفة والحكماء،بل كان وما يزال يعيش على ظهر الأرض مع أهل الأرض سواء كانوا ملوكا أوعلماء أم زهادا أم فلاسفة أم قُوادا أم حكاما أم تجارا ،أم عمالا رجالا ونساء،وشيوخا وشبابا ،أغنياء وفقراء . . . وصدق الله العظيم القائل : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فاللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين .